

(هو اللّٰه)

عبد اللطيف بن هاجس الغامدي

ح عبد اللطيف هاجس الغامدي، ١٤٤٠ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الغامدي، عبداللطيف هاجس مسفر
هو الله. / عبداللطيف هاجس مسفر الغامدي. - جدة، ١٤٤٠ هـ
٢١٢ص، ١٤× ٢٠ سم
ردمك: ٢-٨٦٥٢-٠٢-٦٠٣-٩٧٨
١- الأسماء والصفات ٢- الألوهية ٣- الوعظ والإرشاد
أ- العنوان
ديوي ٢٤١ ٣٤٧١/ ١٤٤٠

رقم الإيداع: ٣٤٧١/ ١٤٤٠
ردمك: ٢-٨٦٥٢-٠٢-٦٠٣-٩٧٨








بسم الله الرحمن الرحيم





بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله بكلِّ المحامد على كلِّ النعم، والصلاة والسلام على سيِّد ولد آدم، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله،

أما بعد:

فقد كنت أردد مع أقراني الصغار في المرحلة الابتدائية تلك التحفة الإيمانية:

الله رب الخلق	أمدَّنا بالرزق
إذا دعاه الداعي	يحقق المساعي
يُسهِّل الأمورا	ويدفع الشرورا
وكل شيء عنده	بحكمة أعدَّه
أكرم به من محسنٍ	يبرُّ كلَّ مومنٍ
من حقِّه أن يُعبدا	صدقًّا وأن يوحَّدا

فيمتلئ قلبي باليقين، وتسكن في نفسي مباهج السعادة، وتغمر روحي نفحات الراحة والرحمة، ويفيض فؤادي بالأمان والحنان..

وكبرت سني.. وتعاقبت الأحداث وتتابعت الأحاديث، فأدركت قيمة الحرف، وأثر المعنى، ودور الكلمة في التأثير والتغيير والتعبير والتنوير...

وما منا من أحدٍ إلا وهو مُتحدِّثٌ أو مُتحدَّثٌ عنه!

فهل أحدٌ يستحق منا الكلام عنه، والثناء عليه، والمديح له أكثر ممن وهبنا نعمة الكلام، وفتَّق منَّا اللسان، وعلمنا البيان؟!

فتعست حروفٌ تُثني على الناس، وتمدح البشر، وتصف العبيد، وتُبين عن محامد المخلوقين، ثم يدركها العجز، ويغلبها الحَصْرُ عن الثناء عن الله ربِّ العالمين.. ربِّ الخلق والبشر!

إليك وإلا لا تشد الركائب ومنك وإلا فالمؤمل خائب

وفيك وإلا فالغرام مضيع وعنك وإلا فالمحدث كاذب

وإن من أجلِّ نعم الله علينا، وأجمل عطاياه لدينا؛ أنه -وبغير حاجة لنا- عرَّفنا بنفسه، وأبان لنا عن بعض أسمائه وصفاته، وحدَّثنا عن شيء من أقواله وأفعاله، فما أجمل الحديث من الله عن الله!

فقال: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾ [طه: ١٤]

وقال: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ... ﴾ [طه: ١٢]

وقال: ﴿... إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص: ٣٠]

وقال: ﴿.. وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢]

وقال: ﴿ ..وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢]



وغيرهـا من الآيـات القرآنية التي تبين عن أسـمائه الحسـنى وصفاته العُلى، وما أنزل الله الكتب، ولا أرسـل الرسـل، ولا شرع الشرائع، ولا أقام البينات والمعجزات إلا ليعرِّفنا بنفسه –سبحانه– وبالوسيلة الموصلة إليه...

وإن أشرف العلوم وأزكاها وأعلاها وأرقاها وأنقاها وأتقاها؛ العلم بالله –تبارك وتعالى– فمن كان بالله أعرف كان منه أخوف..

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]!

فأي معرفة عرفتَ إذا جهلتَ: من هو ربُّك؟

وأي علم حصَّلت إذا فاتك العلم بالله؟

وأي حقيقـة أدركـت إذا لـم تعـرف طرائق مراضيـه، وكيف الوصول إليه؟!

فـإن أعظم مـا أدركته العقـول، وحصلته النفوس، واكتسـبته القلوب؛ هو العلم بالله وأسـمائه وصفاتـه وآياته وحِكَمِه وأحكامه ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]

وإني –وإن كنت أشكو قسوة قلبي وقلة علمي وكثرة جهلي– عزمـت علـى كتابة «هــو اللّٰه» طمعًـا في التذكير ببعـض أفعال الله في خلقـه، لندرك بعض فضلـه ونعمه علينا، ونقف على شـيء من مظاهر إحسانه إلينا..

ولو أني بذلت المهجة، وأوقفت اللهجة، ووحَّدت الوجهة، وأتلفت المقلة، وأنفقت المال، وأجهدت العيال، وأفنيت العمر، لأشرف بنعمة الدلالة على الله -تعالى- وتعريف الخلق بخالقهم لكان ذلك قليلًا ضئيلًا في جنب حقِّ ربِّي على روحي وقلبي، ولكان ذلك -أيضًا- من محض فضله، وجميل توفيقه، وجزيل جوده، فله الحمد كثيرًا كما ينعم كثيرًا!

إن الحياة الطيِّبة؛ هي الحياة مع واهبها من أوّلها لآخرها، ولذلك يُسنُّ الأذان في أُذِن المولود حين يستهلُّ من بطن أمه صارخًا، ليكون أول شيء يسمعه: (الله) أكبر!

ويُسنُّ تلقين المتوفَّى شهادة التوحيد حين تحضره المنيَّة، لتكون آخر كلمة يسمعها: لا إله إلا (الله)!

هذه هي الحياة..

(الله) في البداية، و(الله) في النهاية..

وما بينهما؛ العيش في كنف (الله)!

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

فحياة المؤمن تبدأ بالأذان في أذنيه، وتختتم بالصلاة عليه، ليكون العمر بينهما ميدان طاعة، ومحراب عبادة، ومضمار سباق إلى الله والدار الآخرة..

وعلى قدر معرفتنا بربنا -سبحانه- تكون محبتنا له، وتعلقنا به، وثقتنا فيه، وتوكلنا عليه، وركوننا إليه، وانطراحنا بين يديه، فلو عرفناه -حقًّا وصدقًا- لأحببناه حبًّا جمًّا يملك منا السمع والبصر، ويخالط حشاشة القلب وبشاشة الروح، ويجري في دمائنا مجرى الدم وفِي صدورنا مجرى النفس ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]..

فهل وجدنا الخشية إلا في العلم به، والطمأنينة إلا في معرفته، والسعادة إلا في محبته، والربح إلا في معاملته، والفوز إلا في طاعته، والأنس إلا في الخلوة به، واللذة إلا في الانكسار له، والشرف إلا في القرب منه، والراحة إلا في الإقبال عليه، والفرحة إلا في الانكسار بين يديه؟!

فخذ -يا محب الخير- رسالة محب الخير لك، فقد نثرت لها كنانتي، وبريت قوسي، وعصبت رأسي، وسكبت فيها نفسي، وأمهرتها مهجتي، وأفنيت فيها ذاتي، فافتح لها مغاليق قلبك، وأمعن في حروفها بصيرتك وبصرك، وأصغ لمبانيها سمعك، وأرهف لمعانيها حِسَّك، وغض الطرف عن زلاَّتها، وتغافل عن عِلاَّتها، واغمر أخاك بفضلك، وامزج حرف نصحك بحرف دعائك، فإن الحرَّ يراعي وداد لحظة، ويحفظ مداد لفظة...



وهيـا بنا في رحلة ماتعة نافعة لنعرف -بعض العلم- عن ربِّنا ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] فإنما «**هو الله**» خطوة صغيـرة قصيـرة في طريق معرفـة الله -تبـارك وتعالـى-، فما أمتع الرحلة، وما أجمل الطريق!



يسوق خطوتك...

تتوه بك الدروب، وتختلط عليك السبل، وتتعدد بين عينيك مفارق الطرق، فلا تدري أي طريق تسلك، وفِي أي مسار تمضي؟

فيحار عقلك، ويتوه فكرك، ويغيب رشدك..

تمضي لا تلوي على شيء، ولا تدري مالطريق؟!

فجاة!

ينشرح صدرك لدرب الخلاص، وتسلك سبيل النجاة، فتنجو مما تخاف، وتسلم مما تحذر، وتغنم ما كنت ترجو، وتصيب طريق الصواب..

فمن دلّك سوى رب العالمين، ودليل الحائرين، ومن هداك إلا هادي التائهين؟!

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]

فلـه في كل خطـوة نعمة، ومـع كل نجاح توفيـق، وبكل قرار واختيار تسديد وإرشاد، وإمداد وإعداد، وإلهام وإكرام!

ربي معي، فمن الذي أخشى إذن ... مـا دام ربـي يحسـن التدبيـرا
وهـو الـذي قـد قـال في قرآنـه ... ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾

❍ فرَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من مصر خوفا من فرعون وملائه، فسارت به مقادير الله إلى مدين، حيث الرزق والزواج والأمان!

وتاهت خطاه في فجاج الشام، فساقه الله إلى الوادي المقدس طوى، فكان التكليم والتكريم!

وضلّت بين يديه السبل وهو يبحث عن الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ فكان السفر لمجمع البحرين، ليكون بعده اللقاء الماتع النافع حيث غرائب العلم وعجائب المعرفة!

❍ وامتدت خطى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في الأرض الرحبة مع زوجته الغالية وولده الأثير، ليكون الفراق المثير بواد غير ذي زرع، فكانت مكة!

❍ وانتبذت مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ موقعًا شرقيّا، وتنحَّت مكانا قصيّا، لتنجو من قومها ولومهم ولؤمهم، فكان جذع النخلة حيث الرطب الدني والمشرب الهنيء!

❍ وخرج محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أحبِّ البقاع إليه مطاردًا ملحوقًا، فساق الله خُطَاه إلى المدينة النبوية حيث البركة المضاعفة والأرض الطيِّبة...



فمـن يهدي بعد الضلالة، ويُعلِّم مـن بعد الجهالة، ومن يُغني بعد القلَّة، ويُعزُّ بعد الذِّلة؟!

إلا الله!

﴿ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴾

فإذا تاهت خطاك، وخارت قـواك، وبارت حيلك، وضعفت قوتـك، واسـتبان لـك ضعفـك وفقـرك وعجـزك، فقل: يـا دليل الحائرين..

من يدلني سـواك، ومن يسـلك بي طريق النجـاة غيرك، ومن يقيل عثرتي في خطوتي إلا أنت؟!



وينجيك من عدوك...

يتربص بك العدو الغادر، ويمكر بك الحقود الفاجر، ويقيم حولك الشباك، وينصب في طريقك الشراك، ليسوقك -مرغما- نحو دروب الهلاك...

فترتعد فرائصك، ويوجف قلبك، وترتجف أطرافك، ويجفُّ ريقك، فالخطَّة مُحكمة، والخطوات محبوكة، والمعالم مرسومة، والنتائج مدروسة، وقد أحاطوا بك من كل جانب، وأجلبوا عليك بخيلهم ورجلهم، واندفعوا نحوك بقضِّهم وقضيضهم، وعددهم وعُدَّتهم..

فإن وكلك الله لنفسك وأسلمك لعدوِّك؛ بارت حيلك، وخارت قواك، وقطِّعت حبالك، وفشلت خططك، وذهب عزُّك كذهاب البصر، وغار مجدك كما يغور الماء في صُمِّ الصخر..

فواغوثاه!

من ينجيك من مكرهم، ويحميك من شرهم، ويحفظك من ضُرِّهم، ومن يُبْطِل أذاهم؟

إلا الله!

﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

فتشعر بحفظ الله لك، وتحسُّ بقربه منك، وأنه يحوطك من ورائك، ويحميك من ألدِّ أعدائك، بل وينصرك عليهم، ويحفظك منهم، ويمكِّنك من رقابهم، ويُنكِّس لك جباههم، ويُخضع بين يديك أعناقهم، لا بجهد منك أو رشد، ولا بقوة أو قدرة، ولا بحول أو حيلة، وإنما بحسن تدبيره، ودقَّة تقديره، وكرمه الذي لا حد له، وحفظه الذي لا أذى معه!

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

فقد أغرق الله فرعون وغمر رأسه بالوحل وأرغم أنفه في الطين، وهو بين جنده وفي قمَّة قوته وشدَّة قدرته، ونجَّى موسى عليه السلام من الغرق في اليم بتابوته الصغير وهو طفل وحيد فريد كسير، ونجاه من الغرق في البحر وهو نبيٌّ كبير، فمن كان مع الله فلن يضره ضعفه، فهو بالله قوي غالب، ومن لم يكن مع الله فلن تنفعه قوته، فهو من دون الله خائب خاسر...

فهو -سبحانه- القوي الذي يُذلُّ أقوى خلقه بأضعفهم، وأكبرَهم بأصغرِهم، وأعظمهم بأهونهم، وبأَهْوَن الأسباب، وأيسر السبل، لتدرك قوته وقدرته، وأنك تأوي إلى ركن شديد، فقد أهلك النمرود بالبعوض، وهزم إبرهة بالطير، وأغرق فرعون بالماء، ودمَّر سد مأرب بالفأرة، وأهلك قوم عاد بالريح، وأباد قوم ثمود بالصيحة المتلفة...

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

إن من أعدل ما في الدنيا أن لها نهاية، ومن أحكم ما في حياتنا أننا سنموت، لنلقى ربًّا عدلاً حكيمًا، رؤوفًا رحيمًا، لا يظلم الناس مثقال ذرة، فينتصف للمظلوم من الظالم، وينتصر للمقهور من المتجبر الآثم، وتعود الحقوق لأصحابها، وترجع الأمور إلى نصابها، فما دام الله معك في دنياك وآخرتك -وهو ربُّ كلِّ خير- فعاقبة أمرك إلى خير كثير!

وإذا كان الله معك، ويؤيدك، وينصرك، فمن ذا الذي يؤذيك أو يعاديك أويهزمك؟!

وهل تؤمِّل غيره للشدائد، والشدائد بيده؟

وهل تدَّخر غيره للنوائب، وغيره تفضحه المعايب والمثالب؟

وهل تلتمس فضل غيره وبيده وحده الخزائن وخُزَّانُها والأملاك ومُلَّاكُها؟

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]

إذا استقرَّ هذا اليقين في قلبك وتشرَّبته نفسك لم تحفل بمن عاداك أو عاندك، فأنت بالله تصول وتجول، وتقاتل وتحول..

هذا اليقين الذي سكن في قلب نبي الله هود عليه السلام فجعله -وبكل ثقة ويقين- يصيح في قومه المعاندين المكذبين:



﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [هود: ٥٥، ٥٦].

فكانت الريح العقيم...

وكانوا هلكى كالصريم..

فانظر إلى آثار قوة من لجأ إليه، واعتمد عليه، واعتدَّ به؟!

﴿ .. وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣١]!



ويحفظ حبيبك...

تغيب عن أحبابك، وتسافر بعيدًا عن قرابتك، وتطويك الأرض بين جنباتها، ويعزُّ عليك اللقاء، ويعجزك الرجوع، ويزعجك الغياب، وتعصف بك الأشوق، وتضنيك اللوعة، ويحرقك البعاد، وينعصر قلبك خوفًا عليهم، وشوقًا إليهم، وشفقة بهم، وتخشى عليهم من نوائب الدهر، وعثرات الزمن، وتقلب الدنيا، وفجائع الحياة...

وتغيب عن عينك كل الصور، وتتلاشى في نظرك كل الوجوه، **ويبقى اللّٰه**... يعمر قلبك بالسكينة، ويمد روحك بالأمان، ويغمر نفسك بالاطمئنان، لأنه وحده «**الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل**»!

فكأنهم بين عينيك لا تغادر منهم أحدًا، أو بين ظلوعك لا تخشى عليهم كمدًا ولا نكدًا..

إنه اللّٰه.. الذي أمدك بالأمان، وغمرك بالاطمئنان، وأكرمهم - من بعدك - بالحفظ، وأولاهم بالرعاية والعناية..

فوحده الله الذي إذا كان معك، فلن تحفل بالأصدقاء ولو كثروا عددًا، ولن تخشى من الأعداء ولو اجتمعوا عليك لبدًا!



﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]

فنجاة حبيبك وعودته إليك، تعتمد -بعد الله- عليك، ومدى ثقتك بربِّك وتوكلك عليه وصدق لجوئك إليه، فيعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قال: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣] غاب يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عنه أربعين عامًا، وأصيب يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بالعمى، واشتعلت في قلبه لواهب الحزن والأسى، وحينما قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣] عاد إليه يوسف بعد طول الوجد، وعادت له عيناه بعد حزن الفقد، واشتعلت في حياته قناديل الفرح!

- ولما نادت هاجر عَلَيْهَا السَّلَامُ في زوجها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يوليها ظهره، وقد تركها مع وليدها -إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ بواد غير ذي زرع حيث الوحدة والوحشة، فقالت: يا إبراهيم! لمن تتركنا؟!

فأزعجه السؤال، وأعجزه الجواب...

فقالت: آلله أمرك بهذا؟!

فقال: بلى!

فردَّت عليه: إذًا.. لا يُضيِّعنا!

امتلأ قلبها باليقين، ففاضت روحها بالسكينة، وطابت نفسها بالأمل....

إن للآمـــال في أنفســـنا لـذةٌ تنعـشُ منهـا مـا ذبـل

لـذةٌ يحلـو بهـا الصبـرُ علـى غمراتِ العيش والخطب الجلل

فهل ضيَّعها ربُّها الذي اعتمدت عليه وأنست به؟!

أما فجَّر الله الماء المبارك من تحت أقدام وليدها، وساق لها قبائل العرب قبيلة من بعد أخرى، وناسًا في إثر ناس؟!

أما عمَّر الله لها المكان؟ وأيُّ مكان؟! إنها مكَّة قبلة الدنيا، وأمُّ القرى!

لقد كان منتهى أملها وغاية رغبتها في شربة ماء، فكان -بفضل الله- نبعًا متدفقًا بالعطاء، متفجرًا بالخير والبركة والنماء، وإلى يوم القيامة...

فإن الأمل في فضل الله وكرمه كالسفينة الحصينة، ينجو بها من ركب على ظهرها، وبه تُشرق شمس السعادة بعد الأُفول، ويُورِق غُصن الرضا بعد الذُّبول..

وما يكتبه الله لنا خير مما نحب، وأعظم مما نطلب، وألطف مما نشاء...

وهكذا فضل الله إذا جاء!





ويكون عونًا لك...

تضيق بك مسارب الحياة، وتجتمع عليك الأحزان، وتحاصرك الهموم والغموم، فتشعر بالضيق والضجر، وكأنما تتنفس من خرم إبرة، وتخنقك العبرة، وتغشاك الحسرة، وتلتمس الخلاص من هذا الكرب الجاثم، والحزن الدائم، والغم الملازم، فلا تجد أحدًا بجوارك، ولا أنيسًا بجنبك، ولا قريبًا بقربك، فتستوحش من قلة الصادقين وندرة المخلصين، وتبكيهم بكل عين، وتشكوهم بكل لسان، وتشعر بأنك طريد فريد في صحراء قاحلة، وبيداء ممحلة إلا من السباع الضارية والوحوش العادية والذئاب العاوية...

فالبعض من الناس في حياتك كالظل الزائل، يمشي بجوارك عندما تكون في الشمس والنور، ويختفي عنك عندما تكون في حاجته إذا حلَّ الظلام...

عندها.. لا تيأس، ولا تبتئس!

فكل ذلك من رحمة الله بك، وفضله عليك؛ لتأوي إليه، وتنطرح بين يديه، وتدرك أنه ليس لك أحد سواه..

فإن رحموك فبرحمته، وإن أعطوك فمن خزائنه، وإن منحوك فمن فضله، وإن أحسنوا إليك فبتدبيره، وإن عطفوا عليك فبتقديره،

فـكل الفضل منـه، وكل العطاء من لدنه، فلا راحم لك سـواه، ولا منجي لك غيره، ولا ألطف بك منه...

وإذا العنايـة لاحظتك عيونُها — لا تخشَ من بأسٍ فأنت تصانُ
وبكلّ أرضٍ قد نزلت قفارها — نم فالمخــاوف كلّهنَّ أمانُ
واصطد بها العنقاء فهي حبائلٌ — واطعن بها الأعداء فهي سنان
وافتح كنوز الأرض فهي غرائمٌ — واقتد بها الجـوزاء فهي عنان

فلا تذهب نفسك عليهم حسرات..

ولا تأس على قلبٍ خذلك..

ولا تأسف على صديقٍ هجرك..

ولا تبك على غائبٍ رحل عنك...

فلن يبقى لك إلا الله!

فهو عدَّتك في البلايا، وغوثك عند الرزايا، وأنسـك في الرخاء وحين العطايا...

من زار بابك لـم تبرح جوارحه — تروي أحاديث ما أوليت من مِنن
فالعين عن قرَّةٍ، والكفُّ عن صلةٍ — والقلبُ عن جابرٍ، والسمعُ عن حَسَنٍ

وما كسر الله قلبك إلّا ليجبره، ولا منعك إلّا ليعطيك، ولا ابتلاك إلّا ليعافيـك، ولا نغص عليـك لذة الدنيا الفانيـة إلا ليرغّبك في نعيم الآخرة الباقي، ولا ابتلاك بجفاء الناس وغلظتهم إلّا ليردك إليه..



فمتى أوحشك الله من خلقه، فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس بقربه..

فالله -تبارك وتعالى- يغار على قلبك، ويريدك له وحده صفوًا من التخليط والتفريط، فلا تحب إلا الله، ولا تشتاق إلا له، ولا تثق إلا فيه، ولا تخاف إلا منه، ولا تتحدث إلا عنه، ولا تعطي إلا من أجله، ولا تأمل إلا في فضله، ولا تأنس إلا بذكره، ولا تعتمد إلا عليه، ولا تفزع إلا إليه، ولا تظن خيرًا إلا فيه، ولا ترجو إلا لما في يديه، ولا تناجي إلا إياه، ولا تشكو إلا عليه، ولا تنطرح إلا على بابه، ولا تلذ إلا به، ولا تأوي إلا لحماه، ولا تأمل معروفًا إلا من كرمه، ولا تطمع إلا في جوده، ولا تذل نفسك إلا عند عتبته، فبالله يهون كل صعب، ويسهل كل عسير، ويجبر كل كسير، ويغتني كل فقير، ويقرب كل بعيد، ويقوى كل ضعيف، ويأمن كل خائف، وينتصر كل مظلوم، وبالله تزول الهموم والغموم والأحزان؛ فلا هم مع الله، ولا غم، ولا ألم، ولا حزن، ولا ندم!

واذا لم تجد السعادة مع الله فأين تجدها؟

وإذا لم تفرح بالله، فبأي شيء تفرح؟!

وإذا فررت من الله فلمن تلجأ، وبمن تستجير، ولا ملجأ منه إلا إليه؟!

وإذا وجدت الله فمن فقدت، وإذا فقدته فمن وجدت؟!

وإذا نصـرك الله فمـن يخذلـك، وإذا تخلَّى عنـك، فمن يقف معك، ومن ينتصر لك؟

وإذا كان الله معك سـخَّر لك ألدّ أعدائك فكانوا خدمًا عندك، يأتمرون بأمرك، وينتهون عند نهيك..

كـن مـع الله تـرَ الله معك　　　واتـرك الكلَّ وحـاذر طمعك

وإذا أعطـاك فمـن يمنعـه　　　ثـم مـن يُعطي إذا مـا منعك؟

وإذا كان الله معك فمن عليك، ومن تخاف؟!

وإذا كان عليك فمن معك، ومن ترجو؟!

وإذا كان الله معـك فكلُّ أهل الأرض معـك، وإذا كان عليك فمن يجرؤ أن يكون معك؟!

وإذا حفظك فمن يضرك، وإذا ضيّعك فمن يجدك؟

وإذا أعطاك فمن يمنعك، وإذا منعك فمن يعطيك؟

وإذا حرمك فمن يعوضك، وإذا أغناك فمن يفقرك؟

وإذا أدناك فمن يقصيك، وإذا أقصاك فمن يدنيك؟

وإذا أحبَّك فمن يبغضك، وإذا أبغضك فمن يحبك؟

فليتـك تحلو والحياة مريـرة　　　وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر　　　وبيني وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين　　　وكل الذي فوق التراب تراب



فلا تكذب على قلبك.. لا تخادع مشاعرك.. لا تنافق وجدانك..

فلا أحد يستحق منك كل الحب ومن كل وجه إلا الله -تعالى-.

ولا أحد يمكنك الإعتماد عليه وفي كل حال إلا الله -سبحانه وبحمده-، ولا ملجأ منه إلا إليه..

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الذاريات: ٥٠]

فهو عُدَّتك في شدَّتك، وغوثك في كربك، وغايتك في رغبتك، ووليُّك في نعمتك، ونجيُّك في وحدتك..

وهو ساتر عورتك، ومأمن روعتك، ومقيل عثرتك، وغافر خطيئتك، لا ربَّ لك سواه، ولا راحم لك غيره!

«يا غلام! إني معلمك كلمات؛ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت، فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا».[١]

(١) (رواه الترمذي وأحمد، انظر: الألباني في ظلال الجنة: ٣١٥، وصحيح الجامع: ٦٨٠٦، والصحيحة: ٢٣٨٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.



ويكرمك بالعلم...

خرجت من بطن أمِّك كالفرخ، لم تكن شيئًا مذكورًا، ولا تعلم قبل ذلك من العلم شيئًا، كأضعف ماتكون، بل لا تدري من تكون في هذا الكون!

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]

فوهبك من النعم، وأكرمك بالعقل، وأمدك بالذكاء، وأسعفك بالذاكرة، وأنجدك بالحافظة، وجاد عليك بالإدراك، فتعلمت العلم، وفهمت الحكمة، وعقلت الدرس، وجمعت نتف العلم، فترقيت في مدارج الدراسة، ونهلت من حياض المعرفة، فَنَمت خبرتك، وربت معلوماتك، وزكت نفسك، ونضج عقلك، فمن أعطاك العقل، وميَّزك بالفهم، ورقَّاك بالعلم؟!

إنه الله!

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾

[النساء: ١١٣].

ولو شاء لجعلك مجنونًا لا عقل لك، أو أخرقَ لا فهم عندك، أو منحرفًا لا تزيد علمًا إلا ازددت به ضلالًا...



❍ فكم رأينا حصيفًا، ذكيًا، ألمعيًّا، أضلّه الله على علم، وختم على سمعه وبصره، وجعل على قلبه غشاوة، فهو في كل واد يهيم، كالحيوان البهيم، تائه الخطوة، شارد الفكر، ضائع بين الدروب، لم يهتد سواء السبيل، ولم يدرك الغاية من وجوده في هذا الوجود، ولم يفقه الحكمة من خلقه في هذه الحياة، قد ترقَّى في سُلَّم العلم حتى أصاب ذراه، وبلغ في درجات التصنيف العلمي منتهاه، لكنه – في الحقيقة – أضل من حمار أهله، وأتعس من تيس السوء، فها هو يتشاءم من الغراب، ويتطيَّر بالبومة، ويعتقد النفع والضر في حدوة الفرس، وذنب الذئب، وذيل الثعلب، وربما يعبد بقرة، يعيش لها ويموت من أجلها، فأين علمه وهذا حاله؟! وأين معرفته وهذا واقعه؟!

وما يغني العلم عن قلب لا يُؤْمِن بخالق العلوم وواهب المواهب؟!

وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يفقهون قيلًا ولا يهتدون سبيلًا؟!

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَث ...﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]

❍ إن حملك لكتب العلم فوق رأسك لا يجعلها في عقلك..

وضمَّك الكتاب على صدرك لا يجعله في قلبك..

وحفظك للمعرفة لا ينفعك ما لم تكن لك دليلًا وسبيلًا تُعرِّفك بالله واهب العلوم والفهوم...

إذا ما لم يفدك العلم خيرًا فخيرٌ منه أن لو قد جهلت
وإن ألقاك فهمك في مهاوٍ فليتك ثم ليتك ما فهمت

«القلوب أوعية، وبعضها أوعى من بعض»[(١)].

ستغدوا -بلا هداية بعلمك- كحاطب ليل يجمع في حبله الفصل والهزل، والدق والجزل، والخير والشر، والنفع والضر، والطيب والخبيث، وتغدو -بلا انتفاع به-، ﴿.. كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

فما أغنت عن فرويد نظرياته، ولا شكسبير مسرحياته، ولا ديل كارنجي كتاباته، ولا شبنقلر أدبياته، ولا نيوتن اختراعاته، ولا نوبل اكتشافاته...

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]

كل ذلك الذكاء لم يوصلهم لخالقهم، وكل تلك المعارف لم تأخذ بأيديهم إلى طريق الحق، فما فائدة علم يُعرِّفك بكل شيء إلا بربك خالق كل هذه الأشياء؟!

(١) (رواه أحمد، انظر صحيح الترغيب والترهيب: ١٦٥٢) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.



ويستر عيبك...

ما من أحدٍ إلا وله ذنوب، وفيه عيوب، وما تزال الأقدام تهوي بأصحابها في حضيض الخطايا، وما زالت النفوس الأمَّارة بالسوء تغوي أصحابها بالسقوط في وحل السيئات...

ذلك باب مولوج، وثوب ملبوس، وكأس مشروب، والنَّاس فيه ما بين مُقلٍّ ومُكثر، ومُقبل ومُدبر، لأن السلامة من السيئات ضرب من المستحيل، والعصمة من الخطايا شيء من الخيال، فنحن المذنبون، وأبناء المذنبين!

وما من شيء عند المذنب -وكلنا كذلك- أحبّ لنفسه وأطيب على قلبه؛ من ستر ذنبه، وحفظه من فضح خطيئته، ولذا فهو يتوارى بها من كل نظر، ويختبىء بقبحها عن كل عين!

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢]

وبالرغم من كثرة السيئات -وربما الموبقات- إلا أن الله -تبارك وتعالى- ما زال يسترنا بستره الجميل، لم يكشف لنا سوءة، ولم يهتك لنا سترًا، ولم يفضح لنا عيبًا، ولم ينشر عنا ذنبًا!

يرى عبده يتوارى عن الورى، ويختبىء من الناس، ويتجنب الفضيحة، ويتخلص من الآثار، ويحرص على كتم الأسرار، ويتأكد من خلو المكان، ويندس بالسوءة خلف الأسوار، وبين

الجدران وخلف الحيطان، ويتأكد من غلق الأبواب، وقفل النوافذ، وإرخاء الستائر...

والله -بعلمه المحيط- ينظر إليه، ويطَّلع عليه..

فكل تلك الأنفاس اللاهثة.. **يسمعها**

وتلك القلوب الواجفة.. **يشاهدها**

وتلك الأطراف الراجفة.. **يبصرها**

وتلك النظرات الخاطفة.. **يعلمها**

ويرى التفاتة الرؤوس، والتواءات الأعناق، ودبيب الخطى، وهمس الشفاه، وإشارات الأيدي، وغمزات العيون، وتحسُّس الأكف، ورعشة الأصابع....

﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩]

ويستمر العبد في التلطُّخ بقاذورات المنكرات، وما يزال الله يستره، ويصرف عنه الأنظار، ويُبعد عن سوءته الأبصار، وينجيه من هجمة الرقيب، وفجعة المتابع، ولو شاء لفضحه على رؤوس الأشهاد، وأبان عورته في أعين العباد، ولجعله حديث الناس، وفاكهة المجالس، ولنشر خبره في أرجاء الأرض وأنحاء الكون، لكنه تعالى ستر!

فهل أحدٌ أرحم به من ربه؟!

فما يزال الله «**السَّتير**» يستر سوءته، ويكتنفه بحفظه، لعله يتوب من ذنبه، ويستحيي من ربه...

فما أحلم الله بعد علمه، وما أرحمه بعد قدرته!

لا يبادر عبده المذنب بهتك ستره، ولا فضح عيبه، ولا كشف جرمه، ولا نشر إثمه، وإنما يستره بستره الجميل، ويحلم عليه بحلمه العظيم، ويصبر على تفريطه بصبره الكبير..

« إن الله حييٌّ ستِّيرٌ، يُحِبُّ الحياءَ والسِّتر...». [(١)]

ولو راجع المذنب ماضي أيامه، وإرشيف آثامه، وسجل أعماله، لتذكر - حتمًا - خطايا فعلها، وذنوبًا اجترحها، وآثامًا عظامًا وقع فيها، خاف فيها من أعين الرقباء، وخشي من إطلاع الناس، واستحيا من علم الخلق، مع علمه السابق بنظر الله إليه، واطلاعه عليه، ورؤيته له، وعلمه به...

وما زال حتى هذه اللحظة لم يعلم بسوءاته أحد، ولم يراه عليها إنسان، فمن ستره؟ وحفظ خبره؟ وأخفى أثره؟

تواری بجدران البیوت عن الوری ... وأنت بعين الله لو كنت تشعر

وتخشى عيون الناس أن ينظروا بها ... ولم تخش عين الله والله ينظر

إن بالعبد من النعم من عند ربِّه ما لا يحصيه مع كثرة ما يعصيه، فلا يدري أيهما يشكر؛ أجميل ما ظهر، أم قبيح ما ستر؟!

---

(١) (رواه أبو دَاوُدَ، وصححه الألباني في صحيح أبي دَاوُدَ ٣٣٨٧) عن يعلى بن أمية رضي الله عنه.

والله! لو شعر الإنسان بأن أداة تصوير تتابعه وجهاز تسجيل يلاحقه، لكفَّ عن كثير من جرائمه وعظائمه، خشية العقوبة، وحذرًا من العاقبة، وخوفًا من الفضيحة، وحياءً من الناس..

أليس الله أولى بالحياء، وأحقّ بالخشية؟!

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء: ١٠٨]

فَلَو استتر بكل جدار، واختبأ خلف أيِّ ستار، وتجنَّب كل عين، واتَّقى كل رقيب، فلن يغيب عن علم الله واطلاعه، ونظره ومراقبته، فإنه ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٣].

وهو السميع البصير، والعليم الخبير، والشهيد الرقيب، الذي ﴿ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: ١٢]... ﴿ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ [فصلت: ٥٤].

لا تغيب عنه غائبة، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء...

﴿ ..أَتَخْشَوْنَهُمْ ﴾؟ ﴿ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٣]





ويسدد عجزك...

حدثني أحد الدعاة أنه خطب في قريته خطبةً عصماء، أعجبته فيها نفسه، ثم نزل بعدها ليصلي بالناس، ليقف في تلاوة الفاتحة عند آية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فما استطاع أن يتجاوزها إلى غيرها، لأنه أُرتجْ عليه واستغلق عقله، وانعقد لسانه، فلا يدري ما الآية التي بعدها، فأخذ يبدىء ويعيد ويكثر الترديد، والنَّاس يعتقدون أن الخشوع غلبه وأعجزه عن الإكمال، وإنما هو العجز والعوز والفقر والبلادة، حتى أنقذه الله بطفل صغير فتح عليه من ناحية المسجد القصيَّة بصوته الهزيل: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، فكأنه أحياه من جديد!

- فلا تغتر بقوتك؛ لأنك دون الله ضعيف..

ولا بغناك؛ لأنك بغير عطاء الله فقير..

ولا بقدرتك؛ لأنك دون عون الله عاجز..

ولا بجاهك؛ لأنك بلا ستر الله مفضوح..

ولا بعلمك؛ لأنك من دون فتح الله عليك جاهل، لا علم لك..

يسلب منك القدرة.. فتعجز

ويحرمك التوفيق.. فتحار

ويمنعك السداد.. فتتوه

ويقبض عنك العطاء.. فتفتقر
حتى تشعر بأنك أضعف الخلائق!

❍ وكـم تمر بك في حياتك مواقف عابرة، وتصرُّفات حائرة، تُدرك بعدها أنك فقدت الحيلة، وحرمت من السـداد، فتبحث عن «عقالـك» وهو فوق رأسـك، وعن «نظارتك» وهـي على عينيك، وعـن «جوالك» وهو في يـدك، وعن مفتاحك وهـو بجيبك، وعن قلمك وهو بين أصابعك!

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى فـأول ما يجني عليـه اجتهاده

حقًا وصدقًـا؛ فلو أن الله -تبارك وتعالى- وكلنا إلى أنفسـنا، وتدبير شـؤوننا، لوكلنا -إذًا- إلـى بلادة.. لا توفيق معها، وجهل.. لا منتهى له، وفقر.. لا نجاح به، ولسقطنا في أوَّل حفرة، وهلكنا مع أوَّل عثرة، وضعنا مع أيِّ حيرة...

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]

➢ فمـا الـذي أهلك قـارون إلا اعتمـاده على ذكائـه وفطنته ومعرفته وخبرته بوجوه المكاسـب وأنواع التجارات ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨] ؟!

➢ وما الذي أهلك إبليس وتسـبَّب في طـرده من الجنَّة ولعنه ومسـخه ومقته إلا اعتداده بنفسه وركونه لجنسه ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢]؟!

➢ وما الذي أهلك فرعون وأغرقه وأحرقه وهزمه وزلزله إلا ركونه لجنده وسحرته وقوته ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩]؟!

➢ وما الذي تسبب في تفرّق الجموع الغفيرة -بادي الأمر- في يوم حنين إلا الاعتماد على الكثرة الكاثرة والأعداد المتوافرة ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ..﴾ [التوبة: ٢٥] ؟!

➢ فكم من حادث مروري وقع، كان سببه سائق معتمد على خبرته وجودة قيادته..

وكم من عملية جراحية فاشلة، كان سببها طبيبٌ ركن لتجربته السابقة ومعرفته بتفاصيلها..

وكم من إخفاق لفريق رياضي، كان بسبب التهاون بالخصم والثقة المفرطة بالفريق....

وكم من صفقة خاسرة وسقطة منكرة، وهزيمة ساحقة، وفضيحة مدوِّية، كانت بسبب الثقة الزائدة بالنفس، والركون للأسباب دون الاعتماد على مسبِّبها وخالقها..

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢]

فلا تركن لعلمك، فما أوتيت منه إلا قليلا..

ولا لبلاغتك، فكم قرَّبت بعض الحروف لأبغض الحتوف!

ولا لعقلك، فكم زلَّ، وضلَّ، وجهِل!

ولا لقوتك، فما أسرع أن تُسلب منك فتكون كنخل منقعر..

ولا لعشيرتك، فما أعجل أن ينقلب الموالي معاديًا، والمحب مبغضًا!

ولا لصاحبك، فقد يخونك، ويجفوك، ويخذلك، ويقلوك!

ولا لمالك، فكم جلب المال على صاحبه الألم، وساق إليه الندم، والسَّقم!

ولا لجمالك، فقد يجرُّك إلى المتالف والسفاسف!

ولا لنفسك، فإنها أمَّارة، مكَّارة، غرَّارة، غدَّارة!

ولا لرأيك، فهو عرضة الخطأ، والزيغ، والالتباس!

«ثلاثٌ مهلكاتٌ؛ شُحٌّ مطاع، وهوىً متبع، وإعجابُ المرء بنفسه».[1]

فلا تلتفت بلقبك لغير ربِّك، فإن قلب من التفتَّ إليه بيد من أعرضت عنه!

---

(١) (رواه البزار والطبراني وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ١٨٠٢). عن أنس بن مالك رضي الله عنه.



وكلما كبر الله في قلبك كلما صغر كل شيء دونه، وكلما عظم الله في نفسك، تحاقر وتصاغر كل شيء سواه...

ودائمًا.. **هو الله!** الذي لا يخذلك، ولا يخونك، ولا يُخيِّبُ أملك، ولا يتخلَّى عنك، ولا يتركك في منتصف الطريق...

فمتى تفيق؟!





ويعلمك البيان....

كان سويًّا قويًّا، ذو نباهة وبلاغة، وصاحب فصاحة وحصافة، وله إجابات آسرة وطرافة حاضرة، فأصابته جلطة في الدماغ أفقدته القدرة على الكلام...

زرته في بيته، وليتني لم أفعل!

لقد رأيت العجز في صورة إنسان...

أراد أن يبادلني الكلام فلم يقدر، ويتكلم معي -كما كان يفعل- فلم يستطع..

سبقت عبراتُه عباراتِه، وتساقطت دموعه على خدِّه كالسّيل الجارف، لشعوره بالعجز عن بيان ما في صدره، والإعراب عمَّا في داخله...

ما رأيته أضعف من تلك اللحظة التي تبعثرت فيها حروفه فوق شفتيه، وأعجزه العيُّ والحَصْرُ عن بيان اللسان، وهو ترجمان القلب، وعنوان العقل، وبرهان النفس، وديوان الفؤاد..

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ [البلد: ٨، ٩]؟!

إن اللسان آية، والشفتين آية، والأذنين آية، والصوت آية، واللغة آية، والمخارج آية، والحروف آية، والكلمات آية، والجمل آية، والفهم آية، واختلافها بين الخلق آيات مفصلات..

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢].

لسان الفتى نصفٌ ونصف فؤاده ولم يبق إلا صورة اللحم والدم

كلماتنا لنا حتى نقولها، وربما تنقلب علينا لتكون ضدنا، فنحن نملك زمام التعبير وخطام الكلام حتى يخرج من أفواهنا، وعندها تختلف فيه الأحكام!

فمن يهدينا لأحسن الكلمات بأحسن الأوقات في أحسن الحالات إلا الله؟!

﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ... ﴾ [الحج: ٢٤]

إن الكلمة الطيبة رزق من الله.. فهل شعرت بهذا المعنى من قبل؟!

نعم، إنها لكذلك، لأن المتكلم أحيانًا يريد شيئًا ويُفهم على غير مراده وبضد مقصوده..

وقد يقول بالكلمة يبتغي بها الإصلاح فتغدو للإفساد أقرب وللتفريق أسبق..

وقد يقول بالكلمة لترفع من شأنه، ويُمدح بها بين أقرانه، فإذا بها تصير مسبَّة له ومذمة لعرضه، يُقدح بها ويُشان بذكرها بين الناس..

وكم من كلمة أراد قائلها إضحاك الناس بها، فغدت مثار الضحك على قائلها، ومبعث التندر به والسخرية منه!

احفظ لسانك لا تقول فتُبتلى إن البلاء موكل بالمنطق

إن نعمة الكلام التي لا نكاد نشعر بقيمتها ولا ندرك ثمرتها أغلى أماني الأبكم والأصم.. فهل نعقل هذا؟ هل نفهم؟!

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٣]

أرجوك!

ألصق على فمك شريطا لاصقًا، ولا تتكلَّم...

اخرج للناس وخالطهم ولكن لا تتحدَّث معهم، لا تنبس ببنت شفه، وصم عن الحديث.. لا تتكلَّم!

ثم اجلس مع من لا تفهم لغته، وتناقش، وتحاور.. جرِّب أن تتفاهم.. أن تتعلَّم!

سيكون اليوم عصيبًا، وعجيبًا، وكئيبًا، وتصيح بأعلى صوتك: أرغب أن أتحدث عن ذاتي، وأن أتكلَّم!

هذا الألم المضني والعابر في حياتك هو ما يؤلم نفس الأخرس ويجرح قلب الأبكم.. لكنه لن يبكي أو يشكي، فهو لا يحسن إلا أن يتألم!

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤]

إن من أجلِّ وأجمل نعم الله عليك؛ أنك تتحدَّث بكلِّ ما في قلبك دون تعثُّر..



وتُبين عما في صدرك دون تلكؤ..

وتُعرب عما في داخلك دون عجز..

فمن قوَّم لسـانك، وجمَّل كلامك، وأفصح بيانك إلا الرحيم الرحمن!

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ - ٤].



ويعطيك حاجتك...

صاح بأعلى صوته: أين كنّا يوم نزلت عليهم هذه النعم؟!

فرد عليه صديقه الصالح الناصح: وأين كنّا عن غيرهم يوم نزلت عليهم تلك البلايا؟!

ما أجمل أن تنظر إلى ما في يدك من النعم التي اختصَّك الله بها دون غيرك من الخلق، واجتباك بها دون سواك من البشر!

لقد أسبغ الله عليك نعمه ظاهرة وباطنة، وأعطاك ما لم يعط الكثير من الناس، وفضَّلك على كثير ممن خلق تفضيلًا، فلا تغلط، ولا تقنط، ولا تشطط، ففي يدك الكثير مما يتمناه الكثير!

- ففي المستشفيات من يتمنى أن يعيش مثلك..

وبالسجون من يشتاق لحريتك..

وبالملاجىء من يحلم بمثل فراشك..

وبالقبور من يتمنى فرصتك...

فحياتك -مهما ساءت في نظرك- أمنية الكثير!

والموجود فيها أكثر بكثير من المفقود منها!

فإذا كنت في زيادة، فغيرك في نقصان..

وإذا كنت في عافية، فغيرك في بلاء..



وإذا كنت في صحة، فغيرك في سقم..

وإذا كنت في أمن، فغيرك في خوف..

وإذا كنت في رخاء، فغيرك في عناء..

❍ وإذا كرهت صورتك، وتبرّمت من لونك، وتقذّرت من شكلك، فإن الملايين من البشر يُعانون من عاهات دائمة وتشوهات ملازمة، أغلى أمانيهم أن يشبهوك في شكلك!

❍ وإذاسئمت في بلدك، وضاقت نفسك من وطنك، فإن الملايين من البشر يتمنون لو كانوا مكانك، فحياتهم ضاعت بين الملاجىء والمخيمات والهجرات من بلد إلى بلد، والنزوح من ملجأٍ لآخر..

❍ وإذا كرهت سيارتك القديمة، وضاقت نفسك من أعطالها الدائمة، فإن الملايين من البشر لا يتحركون من أماكنهم، ولا يمشون على أقدامهم، لأن أجسادهم مشلولة، وأبدانهم معلولة...

❍ وإذا كنت قد سئمت من وظيفتك، وضقت ذرعًا من قلّة مرتبك، فإن الملايين من البشر يعيشون بلا وظيفة، وليس لديهم دخل ثابت يتنعمون به مثلك، وحالك أغلى أمانيهم!

❍ وإذا كرهت ملابسك العتيقة، وتضايقت من «ماركاتها» القديمة، فإن الملايين من البشر يُعانون من قلّة ما يلبسون وندرة ما يرتدون، واسأل أهل المخيمات، فكم فيها من الأجساد العارية والبطون الخاوية!

❍ وإذا أزعجك أبوك بنصائحه وأمك بطلباتها، فإن الملايين من البشر قد حُرموا من نعمة الوالدين، فوُلدوا أيتامًا أو لا أسرة لهم، أو بينهم وبين والديهم بُعد المشرقين..

❍ وإذا أزعجك صخب أطفالك، وعبث أولادك، وأرهقك تعب العناية بهم، والإنفاق عليهم، فإن الملايين من البشر مصابون بالعقم، لا أولاد لهم، أو احترقت قلوبهم عليهم، واكتووا بنار البعد عنهم والحرمان منهم..

❍ وإذا كنت قد مللت من بعض الأطعمة والأشربة، فإن الملايين من البشر يباتون جوعى لا طعام لهم، ولا نار تضرم تحت قدورهم، ولا غذاء فوق موائدهم..

❍ وإذا سئمت من فراش بيتك الوثير، وأثاث منزلك الراقي، فإن الملايين من البشر مشرَّدُون لا مأوى لهم..

﴿.. وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣]

إن في يدك من الخير ما هو أغلى أماني غيرك، فلا تزهد فيما عندك من النعم فلعلها ما يتضرع الكثير إلى ربهم أن يهبهم مثلها وقد حيل بينهم وبينها..

وميزان العدل يقول لك: إذا كان فيك ما يُغريك بالحزن، ففيك ما يدعوك للفرح.. فلماذا تجنح للظلام وعندك النور؟!

ولماذا الأسى وبين يديك الكثير من المُنى؟!

ولماذا البكاء وفي وسعك أن تبتسم؟!

ابتسم رغمًا عن أنف الأحزان، فما دام في السماء من يجيب، فلا تحزن ولا تخيب..

أشعل قناديل الفرح، وأسرج مصابيح الهناء، وأطلق عصافير السرور، فلديك الكثير من موجبات السعادة والانشراح، وأسباب الرضا والأفراح..

أليس في بيتك اليوم من الرفاهية والخدمات الكهربائية وغيرها من الاختراعات والابتكارات ما ليس في قصور الملوك والسلاطين الذين عاشوا قبل مئات السنين؟!

أليس في منزلك من الأجهزة ما ليس في بيوت كل الناس -غنيِّهم وفقيرهم- قبل مائة عام من وجودك؟!

أليس في حوزتك ما ليس عند الفقراء والمساكين، وفي يدك ما ليس في أيديهم، وعندك ما ليس عندهم؟!

أليست هذه العطايا من رب البرايا؟!

﴿.. وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴾

[النحل: ٥٣]

أيهذا الشاكي وما بك داء ... كيف تغدو إذا غدوتَ عليلاً

إنَّ شرَّ الجناةِ في الأرضِ نفسٌ ... تتوقى قبلَ الرحيلِ الرحيلا

وترى الشوكَ في الورودِ وتعمى أن تــرى فوقها النـدى إكليلا
هــو عبءٌ علـى الحيـاةِ ثقيلٌ من يظـن الحيــاةَ عبئـًا ثقيلا
والــذي نفسُــهُ بغيــر جمــالٍ لا يرى في الوجودِ شيئًا جميلا

فالأعمى يتمنى أن يشاهد بعض ما تراه..

والأصم يتمنى أن يسمع شيئًا مما تسمعه..

والأبكم يتمنى أن يتحدث بشيء مما تقوله..

والمقعد يتمنى أن يتحرك من مكانه كما تفعل في كل مرة..

ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون..

وإذا كنت لا تـرى في حياتك ما يبهجك، فأغلق عينيك قليلًا، وتذكـر كلَّ ما تتمناه، ثم افتحهما، ألا ترى أن الرؤية لوحدها تعدل كل ما رأيت نفسك محرومًا منه ومصروفًا عنه؟!

فلا تنظر لما في أيدي الناس، وتنسى ما في يدك، فالحكم على الأشـياء من خلال النظر بالعين العوراء والمشي بالرجل العرجاء، تُفقـدك لـذة المتعة بما في يدك مـن نعم، فالأعمـى لا يبصر جمال الزهرة، لكنه يستنشـق أريجها الفوَّاح، فللحياة طعم آخر غير الذي تعرفه، وللقمر وجه مظلم وجانب –بجواره– منير!





ويجيب دعوتك...

يغشاك الحزن، ويفجعك الندم، ويفجؤك الألم، ويعتريك الضيق، ويكتنفك الوجع، فتذكر أن لك ربًا كريمًا، رحيمًا، حليمًا، لطيفًا، رؤوفًا، مجيبًا، قريبًا، فتدعوه وترجوه، وتنطرح بين يديه، وتُظهر فاقتك وحاجتك إليه، فيسمع دعاءك، ويرحم حالك، ويجيب سؤالك، ويعطيك حاجتك، فيأتيك الفرج والفرح والأماني الحسان!

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠]

❍ فلن تجد أعلم بحالك منه..

ولا أقدر على تفريج كربك منه..

ولا أرحم بك منه..

ولا أكرم عليك منه..

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]

فلا تلتفت لسواه، ولا يتعلق قلبك بغيره، فإنهم عبيده؛ يحكم فيهم ما يشاء، ويصنع بهم ما يريد!

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾ [ص: ٩]

لا تسألن بُنيَّ آدم حاجةً ... وسل الذي أبوابه لا تُحجبُ

الله يغضبُ إن تركت سؤاله ... وبُنَيَّ آدم حينَ يُسألُ يغضب

«من لم يسأل الله؛ يغضب عليه».[(١)]

❍ الأبـواب المغلقـة في وجهـك، تقول لك بصـوت واحد: اتجـه نحو الباب الذي لا يُغلق، وهو؛ باب الله تعالى، فإنه سـيفتح لك جميع الأبواب!

لا تيأسـن لبابٍ سُـدَّ في طلب فـالله يفتحُ بعـد البـاب أبوابًا

فهل دنوت منه مرَّة وأبعدك؟

وهل طلبته حاجة وغضب منك؟

وهل أمَّلته يومًا لنائبة فقطع بك؟

وهل طرقت بابه ساعة ثم لم يفتح لك؟

وهل رجوت فضله مرّة وحرمك، وجفاك، وطردك، وقلاك؟!

سـيفتح الله بابًا كنت تحسـبهُ من شدة اليأس لم يخلق بمفتاح

فهذا وعده الممنوح: ﴿.. فَإِنِّي قَرِيبٌ ..﴾ [البقرة: ١٨٦]

وهذا بابه المفتوح: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ..﴾ [النساء: ٣٢]

وهذا عطاؤه الذي يغدو ويروح: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]

فيا لله!

ما أقرب الردّ، وما أصدق الوعد، وما أقصر الخبر، وما أطول الأثر!

---

(١) (أخرجه الترمذي في سننه والبخاري في الأدب المفرد، وحسنه الألباني في صحيح سَنَن الترمذي الصحيحة ٢٦٥٤) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ [الفرقان: ٧٧]؟!

ولن ينسى الله دعواتك، وتضرعك، ودموعك، وانكسارك..

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم: ٦٤]!

ولن يعجزه أن يعطيك ما تطلب..

وأن يكرمك بما ترغب..

وأن ينجيك مما ترهب..

فهو القادر، القاهر، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء...

كيف لا، وهو القائل: و﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾!

فأبشر، وأمِّل من الله خيرًا كثيرًا...

فما ترجوه من آمال في الطريق إليك...

ستراها عيانًا -كفلق الفجر- بين يديك..

وستفرح بها يومًا، لأنك لن تقول له صادقًا: يا رب! وتضيع عليك دعوتك سدى..

كل النداء إذا ناديت يخذلني ... إلا النداء إذا ناديت يا ربِّ

فقلها الآن!

حدِّث بها مولاك...

ناج بها الكريم الرحيم!

ففي لحظة واحدة.. يتغير كل شيء!

دع المقادير تجري في أعنتها ولا تبيتن إلا خالي البالِ

ما بين غمضة عين وانتباهتها يُغيُّر الله من حالٍ إلى حالِ

و «**الدعاء ينفع مما نزل، ومما لم ينزل، فعليكم بالدعاء عباد الله**»(١)

فالله قادر على كلِّ شيء..

وبيده أمر كل شيء..

وفِي ملكه خزائن كل شيء..

وإليه مرد كل شيء..

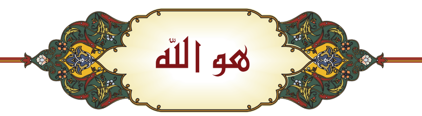
سبحانه ما أعظم قوته وأكمل قدرته!

«**إِذا تمنَّى أحدُكُم فليُكثر، فإنَّما يسألُ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ**»(٢)

فهو «**الصمد**» الذي تلجأ إليه المخلوقات، وتعتصم به الكائنات، بكل لغاتها، وأصواتها، وحاجاتها، وطلباتها، فلا يشغله سمع عن سمع، ولا صوت عن صوت، ولا تعجزه حاجة عن حاجة، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم من إلحاح الملحين، ولا

(١) (رواه الترمذي وأحمد، انظر: صحيح الجامع: ٣٤٠٩، صحيح الترغيب والترهيب: ١٦٣٤) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) (رواه ابن حبان والطبراني في «الأوسط» وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١٣٢٥) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.



من كثرة تضرع السائلين ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

وما دعاه داعٍ إلا أجابه، وما سأله سائل إلا أكرمه، وما تعلق به كسير إلا جبره، ولا مظلوم إلا نصره، ولا مريض إلا شافاه، ولا مبتلى إلا عافاه، ولا محتاج إلا كفاه، ولا سائل إلا أعطاه، ولا فقير إلا أغناه، ولا مضطر إلا آواه وحماه وكفاه..

فالدعاء كله خير وبركة...

وكم بورك لك في حاجة قضاها الله لك بدعواتك وتضرعك...

فلا تبخل على نفسك بالدعاء، وقد وعدك الله بالإجابة له والثواب عليه، وإن الله لا يخلف الميعاد!

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]

وإن كانت عطايا الملوك تشرئب لها الأعناق، وتتشوف لها الأبصار، وتشتاق لها النفوس، ويسيل لها اللعاب، فكيف بعطايا ملك الملوك، ومالك الملك، ورب الأرباب؟!

وهو أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين..

من يده بالخير سحَّاء، ينفق كيف يشاء...

لا تنضب خزائنه، ولا ينتهي ملكه، ولا تُحدّ قدرته..

«إن يمين الله ملأى، لا تغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم ينقص ما في يمينه..»(١)

❍ إن الأبواب الكبيرة لها مفاتيح صغيرة، فلا تعجزك ضخامة الرغبات، وكثرة الطلبات، فربما بدعوة واحدة ترفعها إلى الله -المجيب القريب- تجلب لك المستحيلات، وتأتي لك بالعجائب، فلولا الدعاء الصادق واليقين المتين والثقة الراسخة في الله -تعالى- لظل أيوب مريضًا بلا شفاء، وموسى مطرودًا بلا مأوى، ويوسف سجينًا بلا حرية، وزكريا عقيمًا بلا ولد، وإبراهيم عجوزًا بلا عقب، ويونس غريقًا بلا نجاة، ونوح مغلوبًا بلا نصرة، وهاجر عطشى بلا ماء، ومريم متهمة بلا براءة، وآسيا معذبة بلا بيت في الجنة..

فمن أعظم من الله جودًا وكرمًا وعطاءًا؟!

ومن ذا الذى قرع بابه فلم يفتح له؟!

ومن ذا الذى سأله ولم يعطيه؟!

ومن ذَا الذي طلبه فمنعه؟!

ومن الذي لجأ إليه فردَّه وصدَّه، وحرمه معروفه ورِفده؟!

فأظهر فقرك له وحاجتك إليه، وأبشر بالعطايا العظيمة والمنح الكريمة..

---

(١) (صحيح البخاري ٦٩٧٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فعزك في التذلل بين يديه..

وغناك في الافتقار إليه..

وشرفك في الوقوف على بابه..

وقوتك في الانكسار له والانتصار به..

ومجدك في كثرة ذكره وشكره..

ونورك في الاستضاءة بهديه...

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠]

يدلُّك عليه، ويأخذك إليه، لا لتعطيه، بل ليعطيك، ويُحسن إليك، ويتفضل عليك، فلا تعجب من فقيرٍ يسأل غنيًا، بل العجب العجاب من فقير، مضطر، محتاج، مسكين، يتغافل عن الغني، الكريم، الجواد، الرحيم!

إذا لم أستعن بك يا إلهي فمن عوني سواك ومن مجيري؟

○ فمن لي بيقين إبراهيم عليه السلام الذي ترك أهله خلف ظهره في مكان ممحل بلقع بواد غير ذي زرع، وهو يدعو ربَّه القادر ﴿ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [إبراهيم: ٣٧]؟! فكان ماذا؟! ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [القصص: ٥٧]؟

○ ومن لي بثقة سليمان عليه السلام وهو يدعو ربَّه الوهاب ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ [ص: ٣٥]؟! فكان ماذا؟! ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النمل: ١٦].

❍ ومن لي بحسن ظن زكريا عليه السلام الذي شاب مفرقه واحدودب ظهره ودقَّ جسمه ورقَّ عظمه، وهو يسأل ربَّه الكريم ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]؟! فكان ماذا؟! ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧]

إنها بركة الدعوات الصادقات؛ مفاتيح الفرج، ومغاريف الرزق، وأبواب السعادة..

﴿.. وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤]

نعم، لن تكون شقيًّا ما دمت داعيًا، فإنما يكون الشقاء لمن تهاون بالدعاء!

فلا تقلِّل من شأن الدعاء، فهذا الصوت الخافت لزكريا عليه السلام في جنح الظلام ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣] صعد الفضاء، واخترق حجب السماء، فكان -بفضل الله- جزيل العطاء...

فهل وعيت الدرس، وأبهجت بالدعاء النفس؟!

وإني لأدعو اللهَ والأمرُ ضيِّقٌ ... عليَّ فما ينفكُّ أن يتفرجا
ورُبَّ فتىً ضاقت عليه وجوهُهُ ... أصاب له في دعوة الله مخرجا

هل بقي في نفسك شيء لم يتحقَّق؟

وهل في صدرك حاجة لم تقضَ؟

ففضل الله لا ينقضي، وجوده لا ينتهي..

﴿.. وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ ..﴾ [النساء: ٣٢]

فـإذا عز عليك مطلبك، وصعُـب تحقيق مرادك، فهو على الله هيِّن، وإن كانت لك الحاجة، وليسـت لك القدرة عليها، فلك ربٌّ لـه القدرة المطلقة عليهـا وعلى غيرها، وليس لـه إليك حاجة ولا إلـى غيـرك، فإذا ضاقـت بك الأرض، اتَّسـعت لك السـماء، وإذا ابتعـد عنك الخلق، فقد بقـي لك من هو أقرب إليك منك، ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، فاعمـل لله مـا يُحب، واطلب منه مـا تُحب، فإنما هي لحظة واحدة، ويتجلَّى فيها لطفه، ويتَّسـع فيها رزقه، وتحلّ بها عافيته، ويحصل فيها ما تريد منه، وفوق ما تريد!

فلا تضع حاجتـك عند قدمك، وإنما ارفعها فوق رأسـك... أرسلها إلى الأعلى..

إلـى مـن ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: ١٠]

ولن يخيب -في الله- رجاؤك..

ولن تنقطع في كرمه أحلامك..

ولن تذهب دعواتك سدى، ولن يغدو أملك هباء..

فكل الحبال تنقطع إلا الحبل الذي يصلك بالسماء!





تائه الدرب، حائر الخطوة، مشتَّت الفكرة...

هكذا أنت دون نور يأتيك من ربِّك فينير لك الطريق، ويدلُّك على الحق، ويهديك الصواب...

وتمر بك الفتنة، وتعصف بقلبك المحنة، فيظلم فؤادك، ويحار عقلك، ويتوه فكرك، وتغلق بين عينيك المسالك والدروب..

فتغدو كالأعمى الذي لا يبصر..

والأبكم الذي لا يتكلم..

والمقعد الذي لا يتحرك..

والوحيد الذي ليس له عضيد..

وتلتمس ممن حولك الدليل الذي يهديك سواء السبيل، فإذا بالجميع مثلك تائهون، حائرون، يلتمسون النور!

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠]

إن النور لا يأتي إلا من السماء، فتستضيء به نفوس الطيبين؛ وتُسعَد وترقى، وتُعرض عنه قلوب الجاحدين؛ فتُبعد وتشقى، ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ.. ﴾ [النور: ٣٥].



فـالله تعالى نور، وأسـماؤه نور، وأفعاله نـور، وأوصافه نور، وكلامـه نـور، وهدايتـه نور، وتوفيقـه نـور ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [النور: ٣٥]!

وإذا أردت معرفة قدر ولاية الله لك، وهدايته إياك، فانظر إلى حجـم النور والتوفيق في حياتك وخطواتـك وخطراتك وقراراتك واختياراتك!

﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ..﴾

[البقرة: ٢٥٧]

فما أضلَّ طريقنا ورؤانا، إن لم يُرشـدنا مولانا لهدانا ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾!

ولذا فلنلح على الله، ولنتضرع إليه؛ أن يدلَّنا على الهدى، وأن يشرح صدورنا له، وأن يُعيننا على عبادته، بلا نكوص على أعقابنا، أو أن نوليه ظهورنا، ودون أن تزل بنا أقدامنا، أو تطيش عنا عقولنا، أو تقفـل علينـا قلوبنا، أو أن نُسـلب –مـن ربِّنا– التوفيق والسـداد والهدى والرشاد...

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨]

فما أقبـح الحور بعد الكور، والغواية بعـد الهداية، والضلال بعد الهدى، والإدبار بعد الإقبال، والانتكاسة بعد الاستقامة!



﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ [المائدة: ٤١]

«ما من القلوب قلب إلا وله سحابة كسحابة القمر، بينما القمر مضيء، إذ علت عليه سحابة فأظلم، إذ تجلت عنه فأضاء»[١].

و **«لقلب ابن آدم أسرع تقلبًا من القدر إذا استجمعت غليانًا»**[٢].

و **«إنما سمي القلب من تقلبه، وإنما مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة، تقلبها الريح ظهرًا لبطن»**[٣].

إن السعيد حقًّا والموفق صدقًا؛ من هداه مولاه ﷻ إلى صراطه المستقيم، واجتباه بمنهاجه القويم، فهُدي إلى طريق الرشد، والسعد، والإعانة، والنصرة، وكان من المهتدين!

☜ فألصق بين عينيك في كل طريق تسلكه «قصاصة» مكتوب فيها: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

فشعورك بأن الله -تبارك وتعالى- معك مؤيدًا ونصيرًا، وعونًا وظهيرًا، وموفقًا ومدبرًا، وملهمًا وميسِّرًا، يحيل ضعفك إلى قوة، وعجزك إلى قدرة، وهوانك إلى عزٍّ، وحيرتك إلى رشدٍ وسداد...

(١) (رواه الطبراني في الأوسط، انظر صحيح الجامع: ٥٦٨٢، الصحيحة: ٢٢٦٨) عن علي رضي الله عنه.

(٢) (رواه أحمد في المسند، انظر: صحيح الجامع: ٥١٤٧، والصحيحة: ١٧٧٢) عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه.

(٣) (رواه أحمد في المسند، انظر: صحيح الجامع: ٢٣٦٥ وظلال الجنة ٨٨) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.



ويرد غائبك...

يهجرك الصديق، ويجفوك الحبيب، ويغيب عنك الغالي، فتمتلىء عينك بالدموع، وقلبك بالوجع، ونفسك بالوحشة...

فمن يملأ فجوة القلب المحب؟

ومن يداوي جفوة الغالي الأثير؟

ومن يطمئن لهفة النفس المتيَّمة والفؤاد الودود على كل غائب لا يعود؟!

من يمسح العبرة الرقراقة، ويُسكِّن النفس المشتاقة؟

من يؤنس المكان بعد وحشته؟

ويجبر القلب الكسير خلف لوعته؟

ويطفىء نار الشوق التي أوقدت بين الضلوع وأضرمت بين الحنايا؟!

من يرد الحبيب الغائب، ويُرجع القريب المفقود، ويأتي بالغالي المسافر، ويؤوب بالمحبوب المهاجر؟

من يعيد للنفس سعادتها، وللقلوب فرحتها، وللمكان بهجته وللزمان مهجته؟!

من يعمِّر الديار الخربة، وقد صارت كالبلاقع؟

ومن يحيي البيوت الموحشة وقد ملئت بالفواجع؟

من يملأ المنزل بالحركة بعد السكون، والضحكة خلف الدموع، والفرح عقب الأحزان، والحياة بعد الموت؟!

من يعيد للبيوت سُكَّانها، وأمانها، وحنانها؟

من يرجع للأم المفجوعة فلذة كبدها؟ ويغيث قلبها بحبيبها؟

من يرد للوالد ولده، وقد أحرقه البعد، وآلمه الوجد؟!

من يرجع الشمل بعد الشتات، ويجمع الأهل بعد الفراق، ويأتي بالغائبين بعد الرحيل؟

إنه الله!

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن ألا تلاقيا

❍ يغيب يوسف عليه السلام عن أبيه يعقوب عليه السلام فتذرف العين دموعها، وتفيض الروح بأحزانها، وتموج النفس بآلامها، وتضيق الأرض بسكَّانها، ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤]

ويستمر الحزن، وتمتد اللوعة، وتزيد الأحزان، ويتضاعف الحنين بفراق «**بنيامين**»..

فتضيق الأرض إلا في قلبه..

وتسودّ الدنيا إلا في عينه..



وتنقطع كل الحبال إلا الحبل الذي يصله بربِّه..

وهنا.. تنبت فسائل الأمل، وتزهر ثمرات الرجاء، وتورق أغصان الربيع، فإذا باليقين كبرد العافية، وطعم الشبع، وحرارة الدفء، ليهتف يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ في بنيه: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧]

فجاء الفرج، وحلَّ الفرح، وعمَّ السرور، ونطقت البهجة، وأقبلت السعادة ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ [يوسف: ٩٤]

فإذا بالريح قبل الروح، والقميص قبل البدن، والخبر قبل الأثر...

لقد أعاد الله الحبيب الغالي بعد سنين الغياب الموجعة، لكنه عاد بعز الملك، وقوة السلطان، ومفاتيح الكنوز!

وقد يطول البلاء ليعظم العطاء ويكثر الجزاء، فلو فرَّج الله عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في أول ابتلاء، لما آلت إليه خزائن مصر وعمَّ به الرخاء...

فثق بالله -تعالى- ولا تيأس من فرحة الاجتماع وبهجة اللقاء، فقد جعل الله لكلِّ شيء قدرًا..

○ ويتوجَّع أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ من ألم جسده، ويتفجَّع من فقد أهله وولده، فلا يدري أي المصيبتين أعظم؛ الفقد للعافية أم الوجد على الولد والأهل؟!

لكنه -في كل حال- لم يفقد الأمل!

فجاء النداء من خالق الداء والدواء، والمرض والشفاء ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص: ٤٢] فكانت العافية، ورد الله الأهل كما هم، وزاد عليهم مثلهم، وبارك فيهم ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٤]

فكان الاجتماع بعد الافتراق، والائتلاف بعد الخلاف، والشمل المجتمع بعد الوصل المنقطع..

○ فولاية الله لك تغنيك عن كلِّ وليٍّ حميم وحبيب رحيم، كما قالها يوسف عليه السلام: ﴿ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [يوسف: ١٠١] عندما تم له ملكه، وعاد إليه أهله، وخضع بين يديه من عاداه، وظهرت للخلق براءته، وتخلص من ظلمات الظلم والجُبِّ والسجن، واجتمع حوله أقرب الأولياء، وأخلص الأصفياء، فلم تظهر له -على الحقيقة- إلا ولاية الله له، وعناية الله به، طيلة حياته من مبتداها إلى منتهاها، فهي التي تبرد القلب، وتملأ النفس، وتجلب السكينة والأمان...

○ فأقرب الخلق منك قد يخذلك، وأحبهم إليك قد يهجرك، وأخلصهم في نظرك قد يخونك، وأصدقهم عندك قد يكذب عليك، وأما الخالق الرحيم الكريم الودود، فإنه أولى بك من نفسك،



وأرحـم بك منك، فيدنيك منه إذا بعدت، ويدعوك إليه إذا جفوت، ويفـرح بك إذا أقبلت، ويقبـل منك إذا أنبت ورجعـت، فالله يبقى معك وإن مات الولد، وغاب الأخ، ورحل الوالد، واحترق البيت، وضاع المال، وجاع العيال، يجبر قلبك، ويطيِّب خاطرك، ويسرِّي عن نفسك، ويذهب الحزن من قلبك...

فمن لأوجاعك؟ من لها؟

ومِنَنُ الرحمن لا منتهى لها!





ويداوي مرضك...

ما أضعف الإنسان!

تعصف به الأمراض المعطبة، وتسكن بدنه الأسقام المزمنة، فيرقّ بدنه، ويضعف جسده، وتخور قواه...

وتزوره وترزؤه الحمى، فإذا به ينتفض كالريشة في مهب الريح..

ويستقر في رأسه الصداع، فإذا به يتلوى كالحيَّة..

ويصيبه المغص، فإذا به يذوي كالشمعة المحترقة في الليلة الشاتية..

فما أشدَّ ضعفه!

تهاجم جسده فيروسات وميكروبات مجهرية، لا تبصرها العين إلا بالمجاهر الإلكترونية، فتهلكه سريعًا وترديه صريعًا...

وتصيبه الجلطات والسكتات فإذا به كالحلس البالي والشَّنِّ الخالي...

ويسكنه العجز الدائم، من حادث لا يستغرق إلا لحظات معدودة من عمر الزمن..

وتهلكه الشَّرقة، وتدميه البقَّة، وتقتله البعوضة، وتمرضه الذبابة، وتسقمه الفأرة، وتؤذيه الهوام...



وفي كلِّ جُرعةٍ غصص، وفي كل لقمة عناء!

فهو في كل حال مضطَّر إلى ربه، ليحميه من كل مكروه، ويحفظه من كل شر، ويدفع عنه كل ضر... ﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٦٤]

وهو محتاج إلى ربه إذا نزل به البلاء وحلَّ ببدنه الداء أن يكرمه بالشفاء، وينجي بدنه من السقم وجسده من الألم!

فالله يشفي من البأس والعلل، ويعافي المريض بالأسباب والأمل، ومن العجب؛ أن قدرته على الشفاء بالأسباب كقدرته على الشفاء بلا سبب..

قل للمريض نجا وعوفي بعدما عجزت فنون الطبِّ من عافاكا؟

قل للطبيب تخطَّفته يد الردى من يا طبيب بطبِّه أرداكا؟

قل للصحيح يموت لا من علَّة من بالمنايا يا صحيح دهاكا؟

أرأيت كم أنا وأنت في حاجة ملحة إلى ربنا الذي بيده داؤنا ودواؤنا، ومرضنا وشفاؤنا؟!

كم مريض قد عاش من بعد موت الطبيب والعُوّاد

قد تُصاد القطا فتنجو سريعًا ويَحِلُّ القضاء بالصياد

فلا تعلِّق قلبك بغير ربِّك، فإنهم لا يملكون لك إلا تحقيق قدر الله فيك!

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠]

❍ فكم عافاك مولاك من أمراض أسقمت بدنك، وأضعفت جسدك، وأوهت قواك؟ عجزت عنها أيدي الأطباء ولم تعجز عنها يد الله!

❍ وكم ساق الله لك الطبيب اللبيب، والعلاج النافع، والدواء الناجع، والوصفة الصحيحة، والجرعة المناسبة، وأكسبها عناصر العلاج، ووضع فيها خصائص الشفاء.. فكانت بها العافية؟!

❍ وكم دخلت في بدنك من أمراض معطبة، وخلَّصك الله منها دون أن تشعر بها أو تعاني من أوجاعها؟ فعافاك بغير علاج، وشفاك بدون دواء!

❍ وكم عافاك بدعوة صالحة دعوتها، أوخبيئة معروف صنعتها، أو بدعوة ضعيف رحمته، أو أرملة واسيتها، أو بلطف مع يتيم كفلته أو حاجة لفقير قضيتها؟!

وهب أنه لم يحقق لك طلبك ولم يشفِ مرضك..ألا يكفيك هذا الحب، ولو لم تنل مرادك ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦]؟!

فإذا نزل البلاء وحلَّ الداء، فالتمس صالح الدواء مع تعلُّق القلب بمن بيده الشفاء، ولا تيأس من السلامة، ولا تقنط من العافية، فالمرساه لا تجر السفينة، وإنما تبقيها في مكانها لا تتحرك.. هكذا يفعل اليأس بخطواتك نحو العافية والشفاء...



فأطلق في قلبك شـراع الأمل، وتناول بيدك مجداف التفاؤل، وأبحر بسـفينة الرجاء، وتوجـه بقالبك نحو الـدواء، وبقلبك نحو السـماء -فبسم الله مجريها ومرساها ومن بيده داؤها ودواها- إلى حيث النجاة والعافية والشـفاء التامِّ الذي لا يغادر سـقمًا ولا يبقي ألمًا -بفضل الله وكرمه- إن الله على كل شيء قدير.





ويطعمك من جوع...

تشعر بالجوع، فتفرز المعدة عصاراتها، وترسل الخلايا العصبية إشاراتها، فتبحث عن لقمة سائغة، تسد الجوع، وتقيم الأود، وتحفظ الجسد، فإذا بأنواع الطعام تتراءى أمام عينيك، وصوره الجاذبة تنقدح في ذهنك..

فهذا حلو وذاك مالح، وهذا بارد وذاك حار، وهذا لين وذاك قاسي، وهذا مشوي وذاك مقلي، وهذا بحري وذاك برِّي، وهذا نباتي وذاك حيواني، وهذا مطبوخ وذاك طازج، وهذه فاكهة وتلك خضروات، وهذا طير وذاك من بهيمة الأَنْعَام...

وإذا بأنواع شتى من ألوان الطبخ، وأشكال الإعداد، وأصناف التقديم، وأنواع النكهات، توضع بين يديك في صور جاذبة تُغري بُطُون الجائعين!

❍ فمن سخَّر كل هذا العطاء من أجلك، وهيأ كل هذه الأنواع لإمتاعك، ويسَّر كل هذه الطعوم والمطاعم لتكتمل بها لذَّتك ومتعتك، وتكون بها صحتك وعافيتك؟

❍ من سخر لك الطعام من بدايته في الخلق إلى نهايته في الحلق؟

فهذه حبَّة القمح -وهي أصل الطعام- تعبر مراحل حياتها لتكون سببا في حياتك، فهذا يحرث أرضها، وآخر يزرعها، وآخر



يسقيها، وآخر يتعاهدها، وآخر يحصدها، وآخر يطحنها، وآخر يعجنها، وآخر يخبزها، وآخر يحملها، وآخر يقدمها، وأنت في النهاية تأكلها هنيئًا مريئًا..

فمن سخَّر لك هذه السلسلة الطويلة من البشر والحيوانات والآلات لخدمتك وتسهيل لقمتك؟!

ومن دبَّر رحلتها من فجاج الأرض لتستقرَّ على طاولتك، فتكون لك وحدك دون خلق الله جميعًا؟!

وإن اللقمة من الطعام لتكون في يدك وتضعها في فمك، فتخرج منه لأي سبب، فتأكلها على سفرتك قطة أو يلتهمها في برميل النفايات كلب أو تتسلط عليها دابة من دواب الأرض، لتعلم – علم اليقين – أنها ليست لك، وإنما لمن وقعت في بطنه، وكانت قَدَرَه..

ومن وضع فيها الطعم اللذيذ، والمذاق الجميل، واللون المغري، والرائحة الجاذبة، والنكهة المستساغة؟!

ومن أخرج من هذه البذرة الهامدة، شجرة باسقة تسرُّ الناظرين، فيها جذور وساق، وفروع وأوراق، وثمار وأزهار، وتؤتي أُكُلها كل حين بإذن ربِّها؟!

ومن خلق فيها خاصيَّة التنوع، وطبيعة الاختلاف، فالبذور تزرع في أرض واحدة، وتسقى بماء واحد، ويُفضِّل الله بعضها

على بعض في الأُكل، فهذه تخرج حامضة مزة، وأخرى حالية كالسُّكَّر، وثالثة حارَّة كاللهب، ورابعة مُرّةً كالعلقم، وخامسة قاسية كالحجر، وسادسة رخوة كالعهن، وسابعة... وثامنة.. بمختلف الأحجام، والألوان، والأوزان، والأشكال، والأطوال، والروائح، والمذاقات، والمنافع؟!

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤]

ومن جعل في البذرة خاصِّيَّة الإنبات، فمن بذرةٍ لشجرة، ومن شجرة لزهرة، ومن زهرة لثمرة، ومن ثمرة لبذرة إلا فالق الحبِّ والنوى الذي ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ [الأنعام: ٩٥]؟!

ومن أنبت من البذور الهامدة حدائقَ ذات بهجةٍ، ونخلاً باسقاتٍ لها طلعٌ نضيد، وبساتين فيها من كلِّ زوجٍ بهيج، وحدائق غلبًا، وفاكهة وأبًّا، وجنات ألفافًا، ونبات كل شيء؟!

ومن سخر لها الأرض الخصبة لتنمو فيها، ولو شاء لجعلها سبخة ميتة، ولصيَّرها بلاقع يبابًا، لا تنبت شجرًا ولا تخرج ثمرًا؟!

﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ [الأعراف: ٥٨]



ومن سخر لها الماء العذب الفرات النمير عبر الآبار والأمطار والأنهار والينابيع والبحيرات، ولو شاء لجعله مالحًا أجاجًا، لا نفع فيه ولا أثرًا؟!

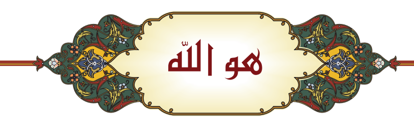
﴿..وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ١٤ - ١٦]

ومن صرف الآفات والجوائح والأمراض عن ثمرك الناضج، وطلعك النضيد، وزرعك البهيج، وحَبِّك المتراكب، وثمرتك المتراكمة، وشجرتك الباسقة، ولو شاء لجعلها حطامًا، وهشيمًا تذروه الرياح؟!

ومن أطعمك من جوع؟! إلا الله ﴿.. وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]!

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩]

❍ يسكن الأرض من الأحياء قرابة السبعة مليار إنسان، فَلَو كان لكل واحد منهم في كل يوم «**قرص خبز**» يأكله، لكان ذلك يستلزم صنع سبعة مليار قرص خبز في كل يوم من أيام الدنيا، فمن يقدر على ذلك إلا الله -جلَّ في علاه!-؟!.



﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢].

ومن يملك خلق الطعام للإنسان والحيوان والطير والهوام والسمك والحشرات والدواب والذرِّ، وما خلق الله في الجو والبر والبحر؟!

ومن يُطعم كلَّ مخلوق بما يناسبه؟ ويرزقه بما يصلح له؟!

ومن يطعمه جنينًا في بطن أمِّه، ووليدًا في حجرها، ومن يغذوه صغيرًا وكبيرًا؟!

ذلكم **هو الله** ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨]





ويؤنس وحشتك...

تضيق عليك فجاج الدنيا إلا مكانًا أنت فيه..

ويتقارب في نظرك الزمان إلا ساعة تعيشها..

وتغيب عن ذاكرتك صور كلّ الخلائق إلا حبيبًا تذكره وصفيًّا تدعو له..

وترحل من قلبك كل الآمال إلا أمل الخلود في ساعة الخلوة بالله تعالى..

قد يهون العمر الا ساعةً   وتهون الأرض إلا موضعًا

فحينما يرتحل النهار بأنواره، وينسدل الليل على الكون بأستارة، وتقل الخطوة إلا من ساهر يتململ أو عابر يتعجَّل..

ويسود الصمت في المكان إلا من تالٍ يترنَّم بآيات القرآن، أو داعٍ يتضرَّع إلى الرحمن، أو غافل يتخبَّط في شهواته، أو مريض يُغالبُه البدن ويتأبَّى عليه الوسن...

هنالك يخلو المحبون بربِّهم، ينادونه، ويناجونه، ويستغفرونه، ويتلون آياته، وينثرون من أجله الدموع في خشوع..

فما أبهج خواطرهم، وما أسعد قلوبهم، وما أنقى ضمائرهم!

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

إن لـذة الأنـس بالله -تعالـى- في ظلمة الليل تربـو في جمالها ولذتها على لذائذ الحياة جميعها..

ولو أن أهل الليل -على قلَّتهم!- تقاسموا الطمأنينة والسكينة مع البشر -على كثرتهم!- لعمَّ السرور، وفاضت السعادة، وحلَّ السلام!

إن كل حبيب يفرح بالخلوة بحبيبه، ويتمنى لو أن الزمان يقف ليملأ عينه من النظر فيه، ويبهج خاطره بالجلوس إليه، ويسعد قلبه بالقرب منه والحديث معه..

فكيـف -ولله المثل الأعلى- بحـال المحبين الصادقين لربِّ العالمين؟!

فـلا لـذة لهـم إلا لـذة القـرب منـه، ولا أنـس لنفوسـهم إلا بمناجاتـه، ولا راحـة لقلوبهـم إلا بالخضـوع بين يديـه والتبتل له والتزلُّف لوجهه الكريم!

﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

[الذاريات: ١٧ - ١٨]

«ثلاثة يحبُّهم الله، ويَضحك إليهم، ويَستبشر بهم»، ذكَر منهم: «الذي له امرأة حَسناء وفراشٌ حسنٌ، فيقوم من الليل، فيقول الله: يَذَر شَهوته، فيَذكرني ولو شاء رَقَد، والذي إذا كان في سفرٍ وكان معه رَكْبٌ، فسَهِروا ثم هجَعوا، فقام من السَّحر في ضرَّاءَ وسرَّاءَ»(١).

و«عَجِبَ ربُّنا من رجلٍ ثار عن وِطَائه ولِحافه من بين أهله وحِبِّه إلى صلاته، فيقول ربُّنا -تبارك وتعالى-: يا ملائكتي، انظُروا إلى عبدي ثارَ من فراشه ووِطَائه من بين أهله وحَبِّه إلى الصلاة؛ رغبةً فيما عندي، وشفَقةً مما عندي».(٢)

فخبئ لنفسك في ظلام الليل ما يجلب لك النور في عرصات يوم القيامة...

هذا ظلام الليل فأين نورك فيه؟!!

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا .. ﴾

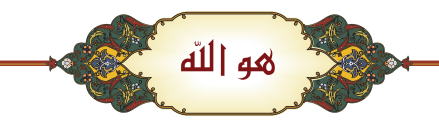
[السجدة: ١٦]

فتأمل حالهم؛ كيف اختبأوا بنور الله في ظلمات الليالي، واختفوا بطاعتهم عن أبصار الخلق، ثم تأمل مآلهم؛ كيف خبأ الله ما أعدَّ لهم من الجزاء التام والعطاء الأوفى ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]

---

(١) رواه الحاكم والبيهقي وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٣٤٧٨) عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٢) (رواه أبو يعلى وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٦٣٠) عن ابن مسعود رضي الله عنه.



«عليكم بقيام الليل؛ فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى الله تعالى، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم».[١]

و«.. واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس».[٢]

لبست ثوب الرجا والنَّاس قد رقدوا ... وبت أشكو إلى مولاي ما أَجِد

وقلت يا أملـــي في كل نائبة ... ومن عليه لكشف الضر أعتمد

أشكو إليك أمورا أنت تعلمها ... ما لي على حملها صبر ولا جلد

وقد مددت يدي بالذل مبتهلًا ... إليك يا خير من مدت إليه يد

فـــلا تردنَّها يـــا رب خائبة ... فبحر جودك يغني كل من يرد

آمالنا كالقناديل المعلقة فوق رؤوسنا، تقول لنا: إذا أظلم الليل فثمَّ الضياء!

وهمومنا وغمومنا كحمولٍ ثقالٍ على أكتافنا، فإذا سجدنا لله سقطت من فوق ظهورنا، وذهبت من حياتنا، وحلَّ الفرح، وعمَّ السرور، وشاعت البهجة!

---

(١) (رواه أحمد والترمذي وحسنه الألباني في إرواء الغليل ٤٥٢) عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

(٢) (رواه الحاكم والبيهقي وحسنه المنذري والألباني في صحيح الجامع ٧٣) عن سهل بن سعد رضي الله عنه.



ويُؤْمِن خوفك...

يتربص بك الأعداء، وتحيط بك المكاره، ويكثر عليك الخصوم، حتى تبلغ روحك الحلقوم..

وتضيق عليك الأرض بما رحبت..

وتضرب كفًّا بكفٍّ، وأخماسًا بأسداسٍ..

ويُسقط في يدك، وتُبلس من الحلول، وتعجز عن المواجهة، وتظن أنه قد أحيط بك من كل جانب..

فإذا بالأمر العجيب، والفرج القريب، والنجاة الرائعة، والخلاص البديع..

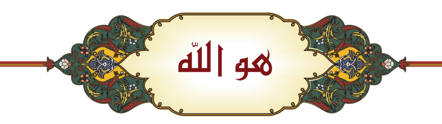
وإذا بالعدو مدحورًا، والخصم مكسورًا، والحسود مبهوتًا، والحقود مكبوتًا، والكيد باطلًا، والمكر فاشلًا، والخطة الرهيبة وبالًا على أصحابها!

﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٧]

فمن أنقذك من بين أنياب ومخالب الأعداء؟

ومن كتب لك النجاة من كيد الخصوم الألداء؟

ومن حماك من الهلاك إلا خالقك ومولاك.. ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤]



الله الـذي جعـل لـك مـن كل هـم فرجًـا، ومـن كل ضيـق مخرجًـا، ومن كل بـلاء عافية، ومـن كل مصيبة، رهيبـة، مهيبة، نجاة وخلاصًا وفكاكًا...

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [النمل: ٦٢]؟!

فـإذا ما سـقطّت علـى ركبتيـك متعبًـا، مسـحوقًا، مجهودًا، مكمـودًا، أخـذ بيـدك، وشـدَّ مـن أزرك، وجـبر خاطـرك، ورحم ضعفـك، وأمـدَّك بمدد من عنـده، وأغنـاك بخيره عن غيـره، ولو تخلَّت عنك قوى الأرض جميعًا..

❍ تحالـف الأعـداء البغضاء وتقاسـموا بينهم ليبيُتـنَّ النبي محمـدًا ﷺ بحدِّهم وحديدهم، وقضِّهـم وقضيضهم، ثم ليضربُنَّه ضربـة رجـل واحد تفلـق الهام وتسـحق العظـام، فاحتمى بحمى مولاه الذي خلقه وسواه، وقال: حسبنا الله!

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤].

فوقاه الله سيئات ما مكروا، وعادوا على أدبارهم خاسئين!



❍ واجتمع إخوة يوسف عليه السلام ليكيدوا به عند أبيه، فألقوه في غيابة الجب، ليكون -بتدبير وتقدير الله- في طريق السيَّارة الذين يحملونه إلى مصر حيث الملك والتطمين والخزائن والتمكين...

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٥٦]

❍ واجتمع فرعون وسحرته على موسى عليه السلام ليغلبوه بالسحر الكبَّار ومكر الليل والنهار، فإذا بالسحرة المارقين ينقلبون في دقائق معدودة إلى عُبَّاد صالحين ودعاة مصلحين...

وقالوا: ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه: ٧٣]

❍ ولحق فرعون وجنوده بموسى عليه السلام ومن معه من المؤمنين، ليلقوهم في البحر المليم، فإذا بالبحر ينقلب لنبيه موسى عليه السلام طريقًا يبسًا، لا يخاف فيه دركًا ولا يخشى، ليكون نجاة وملاذًا لموسى وملائه، وقبرًا وهلاكًا لفرعون وملائه...

﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦١ - ٦٢].

فثق بربِّك، فإنها إذا ضاقت فرجت، وإذا تعسّرت تيسّرت، وإذا أظلمت أضاءت، وإذا احلولكت أمطرت...



﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ.. ﴾ [الطلاق: ٢ – ٣].

❍ فإن كنت مع الله، وكان الله معك، فمعك القوة التي لا تضعف..

والعزَّة التي لا تذل..

والنصرة التي لا تنهزم..

والفئة التي لا تُغلب..

والحارس الذي لا ينام..

والهادي الذي لا يضل..

والفرج الذي لا يتخلَّف!

فلا يأس مع اللّه!

﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧]

إذا ما أراد اللهُ تيسير حاجةٍ   رأيتَ لها مِن موضعِ اليأسِ مخرج

❍ فلا تكره العثرة، ولا تسخط الكربة، لأن بعدها الوثبة، ثم الوجبة..

هكذا علمتنا الأسود!





ويصرف عنك السوء...

لا ضعيف أضعف من مخلوق، ولا قوي أقوى من خالق..

ولا فقير أفقر من مرزوق، ولا غني أغنى من رازق..

ونحن في كل حال أحوج ما نكون لربِّ الكون!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥ - ١٧].

فمن يصرف عنك الآفات، ويحميك من المهلكات، ويدفع عنك الشرور والأخطار، ويحفظك مِن السوء والأضرار؟! إلا الله!

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]؟!

إن البلايا تحيط بك من كل جانب..

والرزايا تحوم حولك من كل صوب..

ولا تزال في حفظ الله تحيا، وبرحمته تعيش..

فقد صرف عنك ما تكره وأنت لا تشعر..

وحماك مما يضرك من حيث لا تدري..

وأنت ترى الكثير من الخلق تتخطَّفهم المتالف، وتنهشهم الكوارث، فهم ما بين رديم وسقيم، وغريق وحريق، ومغموم ومهموم، ومكروب ومنكوب، ومطرود ومجهود، ومسجون



ومفتـون، ومعطـوب ومنهـوب، ومعـذَّب ومُكـذَّب، وغيرها من المصائب والمعائب والمثالب والمتاعب..

ومن رأى واقع غيره هانت عليه حاله، ورقَّت عنده مصائبه..

ومن عاش في الدنيا فلا بدَّ أن يرى   من العيش مـا يصفو وما يتكدر

❍ وإن ضـاق بك الحال، واتسـع عليك الخرق، وزادت عليك المؤونـة، وقلَّـت في نظرك المعونـة، فتذكر أن غيرك يحلـم ببعض ما عندك، ويرضى بشـيء مما في يدك، ولو فتَّشـت العالـم لم تَر فيهم إلا مُبتلـى بفقد محبـوب، أو موجوعًا بحصول بـلاء، أو مفجوعًا بحلول مكـروه، فأطفىء نار مصيبتك ببرد التأسـي بأهل المصائب، وحنانيك بقلبك فبعض الشرِّ أهون من بعض، فاصبر على المُلمَّاتِ حتَّى تنجلي، واثبت للشَّدائدِ حتى تزولَ، واصمُد للمِحنِ حتَّى يصرفها اللهُ عنك..

وابشر بخـــيرٍ عاجـــلٍ   تنســـى به ما قد مضـــى

فلـــربَّ أمرٍ مسخـــطٍ   لـــك في عواقبه الرِّضـــا

❍ وفي الرضا بالقضاء سـلوة للقلب الحزين وتسـرية للنفس الموجوعـة، وبالأنـس بـالله غنى عن كل سـلوى، وكفايـة عن كل شـكوى، فلا أشبه بنعيم الآخرة إلا نعيم الأنس بالله، ولا أقرب من رضى أهل الجنَّة إلا الرضى بالله، والرضى عن الله، والرضا بقضاء الله، فالرِّضا يُفرِّغُ القلب للهِ، والسخطُ يفرِّغُ القلب من اللهِ..



إذا اشتدت البلوى تخفّفْ بالرضا … عن الله قد فاز الرضيُّ المراقب
وكم نعمة مقرونة ببليّة … على الناس تخفى والبلايا مواهب

إن أقدار الله -تعالى- تدور ما بين الحكمة والرحمة، والعلم والحلم..

❍ وقد يصرف الله اليوم عنك شيئًا تُحبُّه فتأسف عليه، ويتفطر قلبك أسًا على فواته، وفي علم الله السابق وعلمه المحيط أن وقوعه لك، ووصولك إليه، وحصولك عليه؛ يضرُّك في دينك أو دنياك..

فحماك منه -لا بخلًا ولا عجزًا- وإنما رحمة ورأفة، وعناية ورعاية، ولطفًا وعطفًا، وكفاية ووقاية...

«إذا أحبَّ الله عبدًا حماهُ الدنيا كما يظلُّ أحدُكُم يحمي سقيمَهُ الماءَ».[(١)]

❍ فأحسن الظن بالله في كل ما يُقدِّره لك، وما يمنعه عنك، فلعل ما أحزن قلبك بفقده وما عجزت عن تحصيله بسبب قبوله -تكرمًا وتفضلًا- لدعوتك التي دعوت بها ذات ليلة في ساعة طيبة، وقلت: **«وقني وأصرف عني شر ما قضيت»**!

«والذي نفسي بيده! لا يقضي الله لمؤمنٍ قضاءً إلا كان خيرًا له»[(٢)].

---

(١) (أخرجه الترمذي والطبراني والحاكم والبيهقي وصححه الألباني في صحيح الترمذي ١٦٥٩) عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه.

(٢) (رواه أحمد وابن حبان وصححه الألباني في الصحيحة ١٨٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.



لا تعجلــــنَّ فربمـــا	عجــل الفتى فيمـــا يضرُّه
فالعيـــش أحـــلاه يعود	علـــى حلاوتـــه بمـــرِّه
ولربمـــا كـــره الفتـــى	أمـــرًا عـــواقبه تســـرُّه

❍ إن بعـض الكسـر جـبر، وبعـض الأخذ عطـاء، وبعض الحرمـان أمان، وبعض المنع حمايـة وكفاية ووقاية، فقد أمر الله الخضـر عليه السلام أن يخرق في سـفينة المسـاكين خرقًا لا يتلفها، ليزهـد فيها عدوهـم، فتبقى لهم، ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]

ومنع الله الطفل الرضيع موسى عليه السلام من حليب النساء جميعًا رغـم جوعه الشـديد وحاجته الملحَّـة، ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢]، ليعيـده لفـؤاد أمِّه الفـارغ وحليبهـا الدافق وصدرها الحنـون، وفـوق ذلك أرغم أنف عـدوه بدفع أجـرة الرضاعة وأن يمنحه حفاوة القصر الفرعوني!

❍ إن حاجتـك لله -تعالـى- في حـال الرخـاء، لا تقـل عـن حاجتك إليه في حال الشدة..

ووضعك في حال الغنى لا يقل فاقة عن وضعك في حال الفقر..

فأنت في كل حال محتاج إليه، لا ينتهي فقرك له ولا استغناؤك به!

فلا تك ناكرًا للجميل، وجاحدًا للفضل، فتلك أخلاق اللئام!



﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾ [هود: ٩]

ولله مع عبده في كلِّ تقدير تيسير، ومع كلِّ قضاءٍ رحمة، وفي كل بلاءٍ حكمة، فإن كان الله قد أخذ منك فقد أبقى لك، وإن منعك فلطالما أعطاك، وإن ابتلاك فكثيرًا ما عافاك، وإن أحزنك يومًا فقد أفرحك أيامًا وأعوامًا...

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت: ٥١].

❍ إن الله -تبارك وتعالى- يُغنيك عن كل خلقه، ولا يُغنيك أحد عن الله..

فالاستغناء بالله عن خلق الله، هو؛ الغنى بلا مال، والقوة بلا سلطان، والعزة بلا عشيرة، والكفاية بلا عتاد، والنصرة بلا عدد، والحماية بلا سبب، والوقاية بلا كلفة..

وإن حالنا مع الله -في فقرنا وحاجتنا- كحال ذلك المسافر الوحيد على مركب مكسور في ليل حالك، ببحر هائج، وموج هادر، وجو عاصف، وبرق خاطف، ورعد قاصف، وقد أيقن بالهلاك، فهو ينادي: **يا الله.. يا الله!**

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ...﴾ [الأنعام: ٦٣ - ٦٤]؟!





يعتريك همٌّ دائم، ويصيبك غمٌّ لازم، يؤرق ليلك، ويعكِّر نهارك، ويكدِّر صفو عيشك..

وتشعر بأنه جاثم فوق صدرك كالجبل الأشم، ويكاد أن يسقط فوق رأسك...

هذا الهم والغم -في الواقع- هو عند غيرك من أصغر همومه وأقل غمومه، لأنه في بلاء أعظم وعناء أكبر..

وقد نجاك الله من حاله البئيس، وواقعه التعيس، وأنت لا تشعر!

ولعلك -بمقارنة عاجلة لحالك مع حاله- تكتشف أن همومك تافهة، وسخيفة، وقليلة، وصغيرة، مع همومه الكبيرة، ومصائبه العظيمة التي ابتلي بها، ولا طاقة لك بواحدة منها..

- فليس لديك غدًا موعد لغسيل الكلى لساعات طويلة مؤلمة ومملَّة..
- أو زيارة لولدك السجين في دَينه الذي عجز عن سداده، وعجزت عن مساعدته..
- أو تنتظر تنفيذ حكم القصاص منك في غلطة عمر بلحظة طائشة..

❍ أو لديك موعد لأخذ جرعة العلاج الكيماوي لتحارب به خلايا السرطان التي تفري في جسدك الهزيل..

❍ أو موعد لعملية بتر لأحد أعضائك الطرفية من داء الآكلة «الغرغرينا» الذي تحاربه ويحاربك..

❍ أو شراء «حفاظات» الأذى لوالدك طريح الفراش لمرضه المزمن من سنوات طويلة، وقد حبست نفسك له ومعه ومن أجله..

ولعلك تجد أن الله حماك من هموم دائمة وغموم ملازمة لكثير من الناس غيرك، تلازمهم كظلهم، وتدوم معهم كدوام ليلهم ونهارهم، وقد نكَّدت عيشهم، وطحنت راحتهم، وأقضَّت مضاجعهم، ولم تخطر في بالك يومًا من الأيام، فغيرك مهموم بدفع قيمة الايجار القادم لمسكن أسرته، وسداد القسط الشهري لمركبته المتهالكة، وشراء علبة الحليب لطفله الرضيع الباكي، وتوفير قيمة فاتورة الكهرباء المتراكمة، وغيرها من الهموم المستمرة، والتنغيصات الدائمة، والتي ربما يجتمع الكثير منها على شخص واحد، في زمن واحد، ولمدة طويلة من حياته...

فهوِّن الأمر على نفسك، ولا تحمل الأرض فوق رأسك، وقد جعلها الله تحت قدمك..

ولا تحزنك الأمور التافهة، والسخافات الساقطة، والقضايا العابرة، والتنغيصات المنتهية، وإذا جمحت نفسك، وجنحت

للتأفُّف والتَّقرُّف، فخذ بناصيتها نحو بيوت الفقراء، وأشهدها مواجع أصحاب البلايا، وأوقفها على مصارع سكان المقابر...

«انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم؛ فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم» [(١)].

إن في يديك من النعم، وفِي جعبتك من الخيرات، وفي حياتك من النعيم ما يتمنى الكثير من الناس عُشر مِعشاره، ولكن أيديهم أمحلت منه وأغناك الله -دونهم- به....

فما دمت تنام دون مهدئات..

وتستيقظ من نومك لا يوقظك الوجع..

وتقضي حاجتك دون أن يكشف عورتك أحد..

وتمشي على قدميك لا يقعدك العجز..

وتغيب عن بيتك دون أن تخاف على أهلك..

فأنت ملك من ملوك الدنيا..

وكل نعيم دون الجنَّة قليل، وكل بلاء دون النار عافية..

وكل هذا الهم -بإذن الله- سيمضي، وأيامه ستنقضي..

فما شدَّة يومًا وإن جلَّ خطبها ... بنازلة إلا سيتبعها يسر

فالجرح الذي أحزن قلبك سيذهب ولن يرجع، والدمعة التي جرحت ملامحك ستسقط ثم لا تعود، والقلب المنكسر المتألم

(١) (صحيح مسلم (٢٩٦٣)) عن أبي هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



سيجبره الجبّار، والطريق المسدود سييسره القادر، والباب المغلق سيفتحه الفتّاح، وأمورك المعوّجة ستستقيم، وأوجاعك المؤلمة ستبرأ، وأمراضك ستُشفى، وحزنك سينجلي، وضيقك سيفرج، ودينك سيقضى، وغائبك سيعود وكلُّ ذلك بإذن الله وفضله..

فمن اعتنى بك وأنت مضغة في بطن أمك ما بين لحم ودم لا تملك صوتًا ولا قوة ولا حيلة، لن يضيعك وأنت تمشي على قدميك، سويًّا، قويًّا...

فإذا اسودَّ الليل، فقد اقترب الفجر..

وإذا اشتدَّ الحبل، فقد حان زمان الانقطاع..

وإذا احتدَّ الكرب، فقد أزف وقت الانفراج..

إذا الحادثات بلغن المدى وكادت لهنَّ تذوب المهج

وحلَّ البلاء وقلَّ الوفاء فعند التناهي يكون الفرج

فأعظم الرغبة في الله، وأبشر بالخير من ربِّ الخير، فكل ذلك على الله هين، وهو عليه قادر!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: ٢٠]

فالله أكرم من أن ينبت في قلبك أملًا ثم يميته، وأرحم من أن يجعل في حياتك همًّا ثم يبقيه، فالله أكبر من همِّك الكبير، وأكرم من أملك الصغير!

❍ سـيأتيك -من الله- فرج لم تحسب له أي حساب، وفرح لـم يكن لك على بـال، ورزق ما لـه من نفاد، وهدايـة ليس بعدها ضـلال، وتوفيق يلازمك إلى الأبد، ونجاح يرمِّم قلبك المكسـور وخاطرك المكدَّر..

قل لمـــن يحمـــلُ هما   إنَّ همـــك لـــن يدوم

مثلمـــا تفنى الســـعادة   هكـــذا تفنـــي الهموم

❍ وإن كان لك من همٍّ كبير، فقل له يا همي الصغير.. إن لي -واسلوتي!- ربٌّ كبير، وعليك قدير، فنعم المولى ونعم النصير!

ابن فـوق دموعـك الجارية جسـرًا من الأمل ليعـبر بك نحو السعادة القادمة والبهجة الدائمة..

❍ وإذا غابت الشـمس فإن الشجرة الباسـقة لا تموت، وإذا غارت النجوم فإن الفجر لا يمتنع عن الشروق، تلك أحزان عابرة، وأوجاع مسـافرة، حطت برحلها عندك يومـا ثم رحلت وواصلت المسير، فلم البكاء، وقد جدَّ الرحيل؟!

❍ وإذا سـقطت قدمـك في أي كربة، فلتسـقط جبهتـك إلى أقرب سجدة..

ففي داخلك ما يدعوك لملاصقة الأرض، فلا تحرم جبينك منها..

فسجدة واحدة.. قد تكون بها النجاة والفرج..

فالذي قدّر عليك البلاء قادر على أن يُتمَّ لك العطاء!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣]



إن نيران الأحزان جميعها... تطفؤها دمعةٌ صادقة في سجود خاشع..

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ – ٩٩]

فاكتب شكواك بمداد الدموع، وأرسلها مع بريد الانكسار، وادخل بها على الله من باب الافتقار، وتهيأ بعدها للفرح والانتصار!

إذا أرهقتك هموم الحياة ... ومسَّك منها عظيم الضرر

وذُقت الأمرّين حتى بكيت ... وضجَّ فؤادك حتى انفجر

وسُدَّت بوجهك كل الدروب ... وأوشكت تسقط بين الحفر

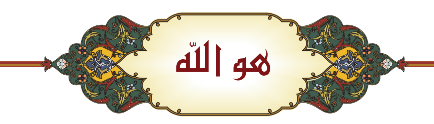
فيمن إلى الله في لهفة ... وبُثَّ الشّكات لربِّ البشر!

وأبشر؛ فإن مع العسر يسرًا، ومع البلاء عافية، ومع الضيق فرجًا ومخرجًا...

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ – ٦]

ولن يغلب عسر يسرين، ولو دخل العسر جحرًا لدخل اليسر وراءه حتى يخرجه منه..

❍ إن الكثير من همومنا وغمومنا تغدو بعد زمن يسير حديث خاطر عابر، وموقف ذكرى في مجلس عامر، نتحدث عنها كأنها لم تكن بالأمس، طويت آلامها بعد أن طويت أيَّامها، قد نجانا الله



منها، وحمانا من لأوائها وعنائها، وأثبت ثوابها في ميزان حسـناتنا، وذهبـت من حياتنـا -كالأمـس الذاهب- وبقي أجرهـا -كأجمل الكنوز وأجلِّ الجواهر-، وإنما الفرج صبر ساعة..

❍ وما من بيت مليء ترحـًا إلا مليء فرحًا، وما كان بكاء إلا كان بعده ضحكًا، وما ضاق صدر بكربة ونكبة إلا اتَّسع بفرج وبهجة..

فلا تحزن على مافات، واستبشر بما هو آت، فليس بعد ليل الحزن إلا نهار السَّـعد، وفرحة الغائـب إذا وفد، وبهجة الضمآن إذا ورد..

❍ وليس بعد مرارة الكسر إلا حلاوة الجبر..

والزمن كفيل -بإذن الله- أن يصنع الفارق في حياتك...

فحزنك ستطويه الأيام..

وجرحك سيداويه الزمان..

والتعب الذي تحس به في صدرك ستأتي من الله سعادة غامرة، لترغمه حتى يختفي من حياتك للأبد..

فكن داخل الهموم، ولا تسمح للهموم أن تكون داخلك، فإن السفينة تكون في الماء وتنجو، ويكون الماء في داخلها فتغرق!





ويذهب حزنك...

لم يخلقك الله -تبارك وتعالى- لتكون شقيًّا، بئيسًا، تعيسًا، حزينًا، بل خلقك لتكون سعيدًا، هنيئًا، راضيًا، تحيا حياة طيبة، وتعيش عيشة كريمة...

﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾ [طه: ١ - ٢]

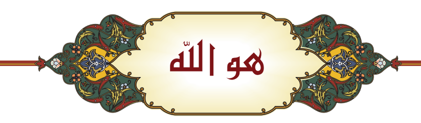
وإذا قدَّر عليك ما يُحزنك، وأوقع بك ما يؤلمك، فإنه يُنزِّل معه من الرحمة والحنان واليسر والرضا والاطمئنان ما يخفِّف به لوعة الآلام وروعة الأحزان، فأحزانك -عند الله- ليست بالمجان!

و«**إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة لم يبلغها بعمله، ابتلاه الله في جسده، أو في ماله، أو في ولده، ثم صبَّرهُ على ذلك، حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له منه**».(١)

وقد جرت سنَّه الله في خلقه، ودأبت حكمته في عبيده؛ أن تكون حياتنا بعد الألم أكثر نضجًا، فسنبلة القمح لا يكتمل نضجها إلا إذا أحرقتها حرارة الشمس، والذهب الإبريز لا يكون نقيًّا إلا بعد لفحه بلهيب النار المحرقة...

---

(١) (رواه أبو دَاوُدَ وأحمد، انظر: صحيح الجامع: ١٦٢٥ الصحيحة: ١٥٩٩) عن اللجلاج رضي الله عنه.



﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]

وإن شئت أن تبتغي نفقًا في الأرض أو سلمًّا في السماء لتسلم من البلايا وتأمن من الرزايا، فافعل، وما أنت بفاعل!

فعش حياتك، واستمتع بعمرك، ولا تحاصرك الهموم، ولا تسكنك اللحظة الحزينة، ولا يهزمك الموقف العابر، فقد واجهت مريم بنت عمران - رضوان الله عليها - تهمةً شنيعة، وفريةً عظيمة، وتجربة قاسية، وموقفًا صعبًا، ومع ذلك قال الله لها: ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ [مريم: ٢٦]، فعش حياتك بلا قلق أو حُرق، ففي حياتك أشياء ليس بيدك منعها، ولا بقدرتك تغييرها، فحلولها عند الله -سبحانه-، وتغييرها لا يأتي إلا منه، فلا ترهق نفسك بالتفكير وقلبك بالتكدير، فالله عنده حسن التقدير والتدبير..

اصبر قليلا فبعد العُسرِ تيسيرُ وكُلُّ أمرٍ لـه وقـتٌ وتدبيـر
وللمهيمِـنِ في حالاتنـا نظـرٌ وفـوقَ تقدِيرنـا لله تقديـرُ

ولن ينسى الله -تبارك وتعالى- دموعك الحزينة، وآهاتك الدفينة، وتنهد صدرك، وحرقة قلبك، وكدر خاطرك، بل سيثبتها لك في ديوان الحسنات وميزان الأعمال الصالحات ما رافقت الرضا بالقضاء، والاحتساب للثواب، والصبر الجميل الذي لا يخالطه تأفُّف و تبرُّم أو تسخُّط و تندُّم..

﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣].

ولولا هذه النوائب والمصائب لوردنا الآخرة من المفاليس!

«إن عظم الجزاء، مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»(١).

وسيعوضك الله عن كل هذا العبء الذي أثقل كاهلك دون أن تتكلم، وعن كل هذه الضغوط التي قاومتها دون أن تتألم، وعن كل تلك الأوجاع التي لم يشعر بها قريب أو بعيد، وعن كل ذلك الفضل الذي بذلته لغيرك دون أن يدري به أحد..

ولعل من عجائب رحمة الله بك وفضله عليك؛ أن يوقع عليك القليل من الأحزان حتى تعرف حقارة الدنيا ودناءتها، وأن دسائسها في طيِّ زخرفها، وأن غرورها مغمور في زينتها، فلا يتعلق قلبك بها، ولا تنغمس نفسك فيها، فتغفل عن النعيم المقيم والخير العميم في جنات النعيم..

فَلَو أن الإنسان أدرك في الدنيا كلَّ أمانيه، وتحققت فيها كل رغباته وطلباته، لركن إليها، وتعلَّق بها، ولذابت مهجته فيها، ولغفل عن الآخرة، وهي دار القرار!

فتصيبه في الدنيا بعض المصائب والمعائب والنوائب والمتاعب ليزهد فيها، وتشرئب عنقه للآخرة، وتتشوف عينه للجنة، وتذوب حشاشة نفسه شوقًا إليها وطمعًا فيها..

---

(١) (رواه الترمذي وابن ماجة وأحمد، صحيح الجامع: ٢٨٥ الصحيحة: ١٤٦) عن أنس بن مالك رَضِوَاللَّهُعَنْهُ.

فهل تأمَّلت بعض وجوه رحمته بك حتى فيما يحزنك؟!

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

❍ وقد يُصيبك شيء من البلاء والباساء، ليطهِّر الله ما في قلبك من أدواء، ويسلَّ ما في نفسك من أهواء، كالكبرياء والاستعلاء والخيلاء، وبعض الوسخ لا يزول إلا بالدلك وشيء من العناء!

❍ وقد تصيبك المصيبة العابرة ليسمع الله دعواتك، وترتفع إليه مناجاتك، فتلجأ إليه بصادق تضرعك، وتنسُّكك، وتخشُّعك، فتُجازى على الحزن القليل بالأجر الجزيل والثواب الجليل..

﴿...فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ...﴾ [الأنعام: ٤٢ - ٤٣]

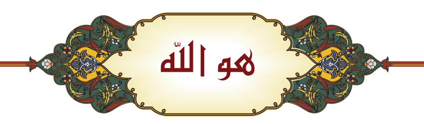
ولمصيبةٌ تُقبل بها على الله خير لك من نعمة تُبعدك عنه وتحرمك منه..

❍ فثق بالله -تعالى- وفي عونه وغوثه ومدده، فالثقة بالله ثمنٌ لكل غالٍ، وسُلَّم إلى كل عالٍ، وهي حبلك الممتد إلى السماء، وحصنك المشمخر في الأعالي، ودرعك المأمون من كل الأعادي..

ومن أراد ذهاب الأحزان إلى غير رجعه، فعليه بالثقة بالله في كل شيء..

والغنى بالله عن كل شيء..

والرجوع إلى الله في كل شيء!



ويحقق آمالك...

آمالـك الكبيـرة، وأحلامـك الكثيـرة، ورغباتـك المتعددة، وحاجاتـك المتنوعة، وطلباتك التي لا تنتهـي، وأطماعك التي لا تنقضـي، لن يقدر عليها إلا من له خزائـن الدنيا والآخرة، وميراث السموات والأرض، ومن بيده الملك كله، وله ما في السموات وما فوقها، وما في الأرض، وما تحتها ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ [طه: ٦].

فكل ما في الدنيا والآخرة من ملكه، وفِي قبضته، وتحت قهره وحكمـه، وقدرتـه وحكمتـه ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦٤].

فهـو «**المهيمـن**» الـذي كل شـيء تحـت سـلطانه وفي قبضته، وبتدبيـره وتقديـره، القاهر فوق عباده، العزيز الحميـد، الفعَّال لما يريـد ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

المتصف بالغنى المطلق، والمسـتحق للحمد المطلق، فليس لقدرته حد، ولا لقوته منتهى، إن أعطاك أغناك، وإن منعك عوَّضك، واسع الفضل، جزيل العطاء، فكرمه لا ينفد، وملكه لا ينفذ..



﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر: ٢١].

وخزائن الأغنياء تفنى مهما حوت..

وأرواحهم تنقضي وإن طالت..

وكرمهم ينتهي عند حد العجز أو البخل أو الضجر والملل..

وأما الله، فكلا!

خزائن الله ملأى بالخير الكثير، وهي أوسع من أحلامك، وأكثر من آمالك، وأكبر من أمانيك..

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢].

فإن أعطوك فمن عطائه..

وإن أكرموك فمن خزائنه..

وإن منحوك فمن ملكه وملكوته..

فالواهب الحقيقي هو من أعطاك وأعطاهم، وشرح صدورهم، ويسر أمورهم، ليعطوك من عطائه، ويجودوا عليك من فضله وكرمه وجوده..

فهو الغني بذاته، والمغني لجميع الأغنياء بأعطياته...

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الأنعام: ١٣٣].



فالأمر أمره، والتدبير تدبيره، والتقدير تقديره، والعطاء عطاؤه، والكرم كرمه، والنعمة نعمته، والمنَّة مِنَّته... ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

«يدُ اللهِ ملأَى لا تَغيضُها نفقةٌ، سحَّاءُ اللَّيلَ النَّهارَ، أرأيتُم ما أنفقَ مُنذُ خلقَ السَّماء والأرضَ فإِنَّهُ لم يَغِض ما في يدهِ»[1].

فقرَّ عينًا، وطب نَفْسًا، وكن مطمئنًا، فالذي يُدبُّر أمر الأكوان بمن فيها وعليها، لا يعجزه تدبير أمر حاجاتك الصغيرة وطلباتك اليسيرة!

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ..﴾ فله الخلق والأمر، والملك والقهر، فعطاؤه أمر، وخلقه أمر ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

بيده ملك السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما فهل يعجزه أن يعطيك آمالك، وأن يهبك أحلامك؟

وما تكون طلباتك في ملك ربِّك وملكوته؟!

فَلَو أن الله أعطى كل مخلوقاته كلَّ ما يطلبون لما نقص من ملكه شيئًا إلا كما ينقص المخيط إذا أُخرج من البحر!

وآمالك -بإذن الله- في الطريق إليك، والفرج قادم، والآمال مقبلة، والخير آتٍ..

---

(١) (رواه البخاري (٣٨٩٨) ومسلم (١٧٣٣)) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فأعظم في ربِّك الطمع، وأحسن به الظن، فإن فضله واسع، وعطاءه لا يُعد، وجوده لا يُحد، وكرمه لا ينتهي، وفضله لا ينقضي...

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر: ٢١].

«ضحك ربُّنا من قُنوط عباده، وقُربِ غِيرِهِ»[١].

يعني؛ قُرب تغييره لحالهم بما يحبون، وهم لا يشعرون!

فلا تشكو حاجتك إلا لربِّك..

ولا تكسر قلبك لغيره..

ولا ترق ماء وجهك لسواه..

ولا تقف على باب عبيده..

فلن تجد أحدًا أرحم بك منه، ولا أكرم منه عليك، ولا أقدر منه على تحقيق أمانيك..

وإنك -إن فعلت- فإنما تشكو لحبيب تغمّه، وصديق تحزنه، أو لعدو تُشمته، وحاسد تفرحه، وتشكو الذي يقدر لمن لا يقدر، والذي يرحم لمن لا يرحم، والذي يملك لك كل شيء لمن لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا ولا خيرًا ولا شرًّا...

وإذا شكوت إلى ابن آدم حاجة

فإنما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

---

(١) (رواه ابن ماجة وأحمد، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢٨١٠) عن أبي رزين رضي الله عنه.



❍ فلا تشكو من ربِّك وإنما أشكُ نفسك إلى ربِّك..

ولا تشكو الله إلى خلقه، فإنك لو عرفت قدره وقدرته وقوته ورحمته وكرمه ولطفه ورأفته وحنانه وإحسانه، لما شكوته، ولو عرفت عجز الناس وضعفهم وفقرهم وفاقتهم ومسكنتهم وقلّتهم وذلّتهم، لما شكوت إليهم..

ويمنعني الشَّكوى إلى النَّاس أنَّني　　　عليلٌ ومَنْ أشكو إليه عليلُ

وآمالك ليست في أيدي الناس، فإنهم لم يخلقوك ليخلقوا آمالك، وإنما توهب لك من ربِّك الذي خلقك لأجله لا من أجلهم..

فالله -وحده- بيده كل آمالك، وهو -وحده- من سيسوقها إليك، فليس بين: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢] وبين: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤] إلا دعوة مخبتة من قلب منيب..

❍ فما يكتبه الله لك خير مما ترجو، وأجمل مما تأمل، وأجزل مما تريد..

وليس بينك وبين حصول الآمال وبلوغ المراد إلا دعوات صادقة يلهج بها لسانك في إنكسار وافتقار، أو سجدة طويلة في خضوع وخشوع لا ترفع رأسك منها إلا وقد أعطاك فيها مولاك كلّ مناك، أو عمل صالح تستوجب فيه الرضى من الله، فيعطيك بعدها ما يرضيك ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥]!



ويغير حالك...

دوام الحال من المحال..

واستمرار الأحزان إلى الأبد مستحيل..

وبقاء الألم طيلة الوقت غير ممكن..

ذلك لأن الله -تبارك وعز- يداول أقداره بين الناس، وينوع ابتلاءاته في حياة الخلق..

فمرَّة بما يألمون، ومرة بما يأملون..

وكرَّة بما يُحِبُّون، وأخرى بما يكرهون..

وأحيانا بالمطلوبات، وأحيانا بالمرهوبات..

﴿ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥]

فيُقلِّب الله -تعالى- أحوال الدُّنيا على أهلها حالًا من بعد حال، بالشدَّة والرخاء والسَّراء والضرَّاء، لتتعلق القلوب دومًا بالله في كل حال، وتفزع إليه في كل وضع، فهو يعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويعز ويضع، ويحيي ويميت، ويبدئ ويعيد، ويسعد ويشقي، ويضحك ويبكي، ويقصي ويدني، وهو في كل حال يتحنَّن على عبده المؤمن، ويترفَّق به، ويُحسن إليه، ويجود بفضله عليه..

فله مع كل حال نوال، وفي كل وضع فضل، وبكل هيأة شأن، وأيُّ شأن!



إن الوقوفَ على الأبوابِ حرمانُ | والعجزُ أن يرجوَ الإنسانَ إنسانُ
متَـى تؤمِّل مخلوقـًا وتقصـــدُه | إن كان عندكَ بالرحمنِ إيمـــانُ
ثِـقْ بالذي هو يُعطِي ذَا ويَمنَعُ ذا | في كلِّ يـومٍ لـه في خلقِـه شـــانُ

﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن: ٢٩]

يغفـر ذنبًا، ويسـتر عيبًا، ويُعطي محرومًا، ويُكسـب معدومًا، وينصـر مظلومًا، ويُواسـي مكلومًـا، ويُغني فقيرًا، ويجبر كسـيرًا، ويُعزُّ ذليلًا، ويشفي عليلاً، ويروي غليلًا، ويأوي طريدًا، ويجتذب شـريدًا، ويُكبِّر صغيرًا، ويُكثِّر قليلًا، ويُعتق أسيرًا، ويقصم متجبِّرًا، ويُـذلُّ متكبِّـرًا، ويُعفّ شـريفًا، ويُقـوِّي ضعيفًا، ويرحـم مكروبًا، ويُكـرم منكوبًـا، ويُطعـم جائعًـا، ويُؤمن خائفًـا، ويكسـي عاريًا، ويُداوي موجوعًا، ويُطمئن مفجوعًا، ويرد غائبًا، ويُسـخِّر صاحبًا، ويـداول الأحـوال بيـن النـاس، ويسـخِّر بعضهم لبعـض، ويرفع بعضهم فوق بعض درجات في الحال والمآل..

﴿ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

❍ فحزنك لن يدوم..

وألمك لن يستمر..

وخوفك لن يتواصل..

وغمك لن يبقى..

لأن لك ربًّا قديرًا، كبيرًا، عظيمًا، جليلًا، جميلًا..

يجعل بعد الضيق سعة..

وعقب الكرب فرجًا..

وخلف البلاء عافية..

وبعد العسر يسرًا..

فأعظم فيه الرغبة، وأحسن به الظن، وأكثر في جوده الطمع!

﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ [الطلاق: ١]

وإذا مسَّك الزمان بضرٍّ — عظمت دونها الخطوب وجلَّت

وأتت بعده نوائب أخرى — سئمت نفسك الحياة وملَّت

فاصبر وانتظر بلوغ الأماني — فالرزايا إذا توالت تولَّت

فكل المآسي وإن تناهت فموصول بها فرج قريب..

أي وربي! فالله قادر على ذنبك أن يغفره، وعيبك أن يستره، وكسرك أن يجبره، وعسرك أن ييسِّره، وهمك أن يفرِّجه، وغمك أن ينفِّسه، وكربك أن يكشفه، ودَينك أن يقضيه، ومرضك أن يشفيه، وولدك أن يصلحه، وعلى حوائجك كلها أن يقضيها في غمضة عين وفي لمح البصر...

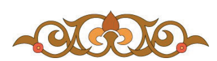


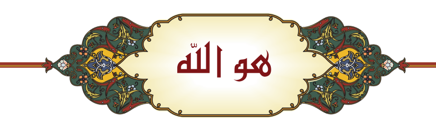
﴿ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠].

فـ «هو الله»، الملك، القادر، القاهـر، القوي، الغني، العزيز، قولـه الحـق، وخبره الصـدق، وحكمـه العـدل، الغنـي بذاته عن جميع مخلوقاته، فلا وزير يشـاوره، ولا زوجـة يصانعها، ولا ولد يسترضيه، ولا قريب يجامله، ولا صديق يخاتله، ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [الأنعام: ١٠١].

ولـن يقع في ملكه إلا ما شـاءه وقدَّره، وسـوف يُسـخِّر لك -بفضله وجـوده- الأشـخاص، والأرواح، والقلوب، والصُّدف، والفـرص، والظـروف، والمناسـبات، والمفاجـأت، والأحـوال، ليتغيَّر حالك إلى خير حال، فلا حول ولا قوة إلا بالله الكريم الذي لا يبخـل، الحليـم الذي لا يعجـل، القادر الـذي لا يعجز، القوي المقتدر على كل شيء....

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾ [الكهف: ٤٥]





ويستر عنك ويستر لك...

لـو كان للذنوب أحجامًـا كالحجارة، فكلَّما أذنبنـا ذنبًا ألقينا بحجمه حجرًا في بيوتنا، هل سـنجد لأنفسنا موطىء قدم في منازلنا بعد فترة من الزمن؟!

➢ ومـاذا لو أن للذنوب روائـح كريهة تزكم الأنوف، وتؤذي النفـوس، فكلمـا أذنب العبـد ذنبًا صعـدت منه رائحة مسـتكرهة بغيضة، بحسب جرمه وإثمه، فكيف سنحتمل بعضنا بعضًا، وكيف تطيب حياتنا وتستمر علاقاتنا؟!

إنه ستر الله –يا سادة!– غطى عوارنا وحجب عوراتنا...

أحســـــنَ اللهُ بنـــــا   أن الخطايـــا لا تفـــوحُ

فـــإذا المســـتورُ منـــا   بيـــن ثوبيـــه فضُـــوح

➢ وماذا لو أن للذنوب أصواتًا ظاهرة، فكلما أحدث الإنسان حدثًـا أو وقـع في خطيئـة صاحـت هـذه الأصـوات وتعالت تلك الإنذارات، فماذا يكون حال الكون وقد علا الطنين وأرتفع الرنين في كل مكان، ومن كلِّ الناس؟!

➢ ومـاذا لـو أن الخطايـا تُكتـب في وجوهنـا، وترسـم على جباهنا، فكلما أذنبنا ذنبًا ظهرت صورته في قسماتنا، وكُتبت أحداثه على صفحات وجوهنا؟!



أكنا سنلتقي ببعضنا، وفضائحنا على صفحات خدودنا؟!

➢ وماذا لو أن كلَّ مُرتكب لذنب، ومُتلبِّس بعيب، ومجترح لخطيئة، كشف الله ستره، وفضح لنا عيبه، وأبان عواره، وأصبحت بيوتنا من زجاج، وكنا نرى من وراء الحُجُب، ونُبصر المخبوء من الأحداث، ونطَّلع على المستور من الوقائع، وتفاضحنا بكل أفعالنا ومنكراتنا، فهل يمكن أن تستمر حياتنا، وتستقرّ علاقاتنا؟!

ألا نزهد في أحبِّ أحبابنا، ويكره بعضنا بعضًا، فيمقت القريب قريبه، والصاحب صاحبه، والزوج زوجته؟!

ألا نترامى بالبعر، ونتقاذف بالشرر؟!

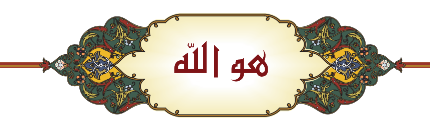
أليس من رحمة الله بنا وفضله علينا؛ أنه جعلنا كالصناديق المغلقة نموت بأسرارنا في صدورنا؟!

وفي الناس شرٌّ لو بدا ما تَعَاشَرُوا ولكنْ كساهُ اللهُ ثوبَ غِطاءِ

➢ ورحمنا بستر ما في قلوبنا نحو الناس، وستر ما في قلوبهم عنا..

فماذا لو انكشف ما في القلوب، وظهر ما في الصدور، وعلمنا ما يدور في خلدهم، وما توسوس به نفوسهم، وما تضمره جوانحهم من حقد وحسد، وغيظ وبغض، وإزراء وازدراء، مع كل من نلقاهم أونتعامل معهم؟!

هل ستنشأ علاقة جديدة أو تستمر رابطة قديمة؟!



وماذا سيكون حالهم معنا وموقفهم منا إذا علموا ما في قلوبنا نحوهم؟!

أرأيت كيف أنعم الله علينا بسترنا، وستر ما في قلوبنا، وستر الخلق عن أبصارنا؟!

أكاد أبكي لتفريطي وإسرافي　　والنَّاس تنعتني بالمورد الصافي

وما حظيتُ بحب الطيبين بما　　أحسنتُ لكن بستر إلهي الضافي

➢ ويستر عنّا ما يشاء من خلقه، مما لهم صور مخيفة، ومشاهد مرعبة، وأشكال مستقذرة، فيستر عنّا صور الميكروبات والفيروسات والجراثيم والحشرات التي تخالطنا دائمًا في طَعَامِنا وشرابنا ولباسنا وفراشنا وأثاث بيوتنا، والتي لو رأيناها على حقيقتها وبصورتها التي خلقها الله عليها، لتكدرت حياتنا، وضاق عيشنا، ولما تلذذنا بطعام أو منام!

فكيف نشرب من كوب ماء، ونحن نرى فيه ما يخالطه وما يعلق بإنائه من جراثيم وميكروبات، وكأنها في صورتها الوحوش الضارية والمخلوقات الموحشة؟!

وقل مثل ذلك عن ملاعق طَعَامِنا وأواني مطابخنا وأدوات مأكلنا ومشربنا...

فيا لها من حياة مرعبة!



ولو رأينا ما يشاركنا ملابسنا، وما يلتصق بأجسادنا من هذه المخلوقات لاستوحشنا، وضاقت علينا الوساع...

ولو أبصرنا ما يسابقنا منها على وسائد نومنا، وفرش مخادعنا لذهب النوم من عيوننا إلى غير رجعة!

➢ ويستر عنا خلقًا عظيمًا من خلقه، لو رأيناهم على صورتهم الحقيقية لذهبت عقولنا، وطاش فكرنا، وخارت قوانا..

فحجب عنا صور الملائكة الذين لا طاقة لنا برؤياهم ولقياهم، وحسبنا أن نعلم أن نبينا محمدًا ﷺ وهو أربط الناس جأشًا وأقواهم نفسًا وأكثرهم شجاعة - حين رأى واحدًا منهم -وهو جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ- أغشي عليه، وعاد لأهله مسرعًا، فزعًا، وهو ينادي فيهم: زملوني.. زملوني!

➢ وحجب عنا صور الجن والشياطين بأشكالها الغريبة، وهيأتها العجيبة، مع أنهم يخالطوننا العيش، ويشاركوننا الحياة...

فقل لي بربك: كيف نعيش معهم، ونحن نراهم؟!

مجرد التفكير في هذا الرعب يوحش القلب!

➢ ويستر عن أسماعنا أصواتًا مفجعة، وأحداثًا مفزعة، لو سمعناها لأقشعرَّت جلودنا رعبًا منها، كأصوات الزلازل الصغيرة، وتحرك صفائح الأرض في باطنها، والانفجارات داخل طبقاتها...

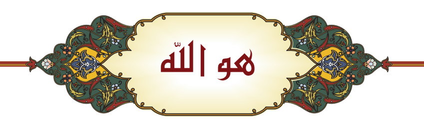


ويستـتر عنا أصوات المعذبيـن في قبورهم، وما يلقون فيها من عقاب وعذاب، «**لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله عَزَّ وَجَلَّ أن يُسمعَكُم من عذاب القبر**»[١].

وتلك -والله!- التي لا تُطاق!



(١) (رواه أحمد في المسند، وصححه الألباني في الصحيحة ١٨٥) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



ويرحم ضعفك...

الله أرحم بك من نفسك..

وأرأف بك من والديك..

وألطف بك من كل حبيب لديك..

وأرفق بك من كل العالمين..

ولولا رحمة ربي لكنتَ من الهالكين!

فهـو: ﴿ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾، و﴿ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾، و﴿ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾، و﴿خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾، و﴿خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾، و﴿خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾، و﴿ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴾، و﴿ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾، ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾، ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، وهـو أرحم الرحماء، وأحلم الحلمـاء، وألطف اللطفاء؛ يدخل برحمته في رحمتـه مـن يشـاء ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [البقرة: ١٠٥].

فـلا تحدثنـي عـن الامتيـازات، والمقامـات، والكرامـات، والجاه، والمراكز، والحوافز، والجوائز، والمناصب، والمراتب...

فكلها تغدو هباءً منثورًا، وحصيدًا منشـورًا، وهشـيمًا تذروه الرياح أمام هـذا الاختصاص الرباني والاجتباء الإلهي: ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ...﴾ [الشورى: ٨].

فرحمته سبقت غضبه، ووسعت كل شيء، وبها يكون الأمان الذي لا خوف معه..

والحنان الذي لا كدر فيه..

والسعادة التي لا شقاء بعدها!

فالمرحوم من رحمه الله، والمحروم من حرمه مولاه!

❍ إن رحمـة الله تغشـاك من مبتداك إلـى منتهاك، ومن دنياك لأخراك، فقد أسبغ عليك فيوض رحمته وأنت في بطن أمك؛ نطفة، فعلقة، فمضغة، فعظامًا ولحمًا..

❍ ورحمـك عندمـا خرجت من بطنهـا كالفـرخ الضعيف، جسدًا من جسدٍ، وإنسانًا من جوف إنسان..

❍ ورحمـك بخلـق مـن يرحمـك، وقـذف الحنـان وحب الإحسان في قلوبهم نحوك..

❍ ورحمـك وأنت تركـب في الدنيـا طبقًا عن طبـق، وحالًا مـن بعد حال، وهو يغمرك برحمته، ويسـبغ عليك سـربال سـتره، ويشملك بواسع كرمه..

فلله في كل حركاتك وسكناتك فيوض جود أسبغها لا تنتهي..

وفضائل حلم دبَّرها لا تنقضي..

وسوابغ كرم يسَّرها لا تذوي..

وشآبيب رحمة قدَّرها لا تنضب..

ولولا رحمته ربي لاحتوشتك الشياطين، وتسلط عليك المعادون، ولكانت حياتك عذابًا أبديًّا وعناءً سرمديًّا، ولكنه برحمته لم يمكِّنهم منك!

فيا له من رحيم، حليم، كريم!

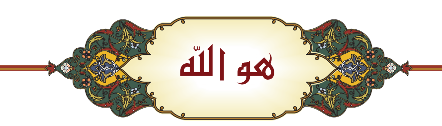
﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾

[الروم: ٥٤].

ومن رحمة الله -تبارك وتعالى- بالإنسان إذا رأى منه عتوًّا واستكبارًا؛ أن يُبين له عن ضعفه، ويكشف له عن عجزه، ويفضحه أمام نفسه، حتى لا يعدو قدره، أو يعلو شرَّه، أو يعظم كبره..

❍ فمهما بلغت قوته، وصلابة جسده، واشتداد بدنه إلا أن الفيروسات المتناهية في الصغر تقعده في فراشه عليلًا، مشلول الحركة كليلًا، وربما تُرديه قتيلًا...

❍ ومهما بلغت حكمته، ورشد عقله، وسداد رأيه إلا أن



شـهوته تسـقطه في القـاذورات أحيانًـا، وغريزته توقعـه في حبائل الشيطان أحيانًا أخرى حتى يغدو وكأنما لا عقل له!

❍ ومهمـا بلغت قـوَّة شـخصيته، وحِدَّة طبعـه إلا أن غياب حبيبه، وهجران صديقه، وموت قريبه يفقده كلَّ قوَّته، فيبكي كالأم الثكلى والطفل الصغير بدموع غزار..

❍ ومهمـا بلغت منزلتـه في العلم، ومكانتـه في التحصيل إلا أنه يقف عاجزًا، حائرًا، مرتابًا، عند قضايا يُحسِنُها من هم دونه في العلم والفهم...

❍ ومهمـا بلغ به الإعجـاب بالنفس، والتعالـي على الخلق إلا أن داعـي الطبيعة يجرُّه بالرغم عن أنفه ليدخله إلى بيت الخلاء ليقضـي حاجته في موضع المهانة، لينزع الله من نفسـه صولة الكبر وانتفاشة الغطرسة...

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨].

والله! لو أن الله -تبارك وتعالى- كشـف الغطاء لعبده، وأظهر لـه كيف يُدبِّـر مصالحـه، ويُصرِّف له أمـوره، ويَصـرِفُ عنه الضرَّ والشـرّ، ويسـوق له النفـع والخير، لـذاب قلبه محبـة لله -تعالى- وشوقًا إليه، وشكرًا لفضله، وعرفانًا بحنانه وإحسانه...

فَلَـو كشـف عنه غطـاء القدر لما اختـار العبد إلا مـا اختار له خالقـه ومولاه، فالله أرحم به من كلِّ أحد.. من كلِّ سـند.. من كلِّ عضد، **فالله يبقى حين لا يبقى أحد!**



ويعوض خسارتك...

في الله تعالى عوضٌ من كل مفقود، وغُنيةٌ عن كل موجود..

فإذا كنت مع الله، كان كلُّ شيء معك..

وإذا لم تكن مع الله، كان كلُّ شيء ضدَّك..

فالله وحده؛ يغنيك عمَّن دونه، ويكفيك عن كل خلقه..

وإذا الشدائدُ أقبلتْ بجنودِهَا
والدهرُ من بَعد المسرّة أوجعَك

لا ترجُ شيئا من أخ أو صَاحب
أَرأيت ظلّكَ في الظلامِ مَشى معَك

وارفعْ يَديكَ إلى السَّماءِ ففوقِهَا
ربّ إذا نَاديتَه مَا ضيَّعك

فكن له كما يُحِب؛ يكن لك كما تُحب..

واجعل الهمَّ همًّا واحدًا؛ كيف يرضى عنك؟ وسيرضيك!

«من جعلَ الهُمُومَ همًّا واحدًا همَّ آخرتِهِ: كفاهُ اللهُ همَّ دُنياهُ، ومن تشعَّبت به الهُمُومُ في أحوالِ الدُّنيا: لم يُبالِ اللهُ في أيِّ أوديتها هلَكَ».[1]

(١) (رواه ابن ماجه وحسَّنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٥٧)) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

و«**من كانت الآخرةُ همَّهُ: جعل اللهُ غناهُ في قلبهِ، وجمعَ لهُ شملَهُ، وأتتهُ الدُّنيا وهي راغِمةٌ، ومن كانت الدُّنيا همَّهُ: جعل اللهُ فقرَهُ بين عينيهِ، وفرَّقَ عليه شملَهُ، ولم يأتهِ من الدُّنيا إلَّا ما قُدِّرَ لهُ**»[(١)].

❍ فلا تبك على اللبن المسكوب، فلن تُعيده لضرعه، ولا على الماء المكبوب، فلن تُرجعه لنبعه...

ولا تندم على ما فاتك..

ولا تحزن على ما ضاع منك..

ولا تتحسر على ما ذهب من يدك..

فلعلَّ الله صرفه عنك؛ رحمةً منه بك، ولطفًا بحالك ومآلك..

وربما لو حصل لك لبكيت منه كثيرًا، ولندمت على حصوله طويلًا..

فكم ساعٍ في حتف نفسه وهو لا يشعر، وجالِبٍ لذاته الضر وهو يظنُّه من نوال الخير!

وكم من مِنحةٍ ظهرت في صورة محنة!

وكم من عطيَّة جاءت في ثوب رزيَّة!

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]!

---

(١) (رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٤٦٥)) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



❍ وإن الله -تعالى- يُجازي بالخير الكثير على العمل اليسير، ويعطي الثواب الجزيل على البلاء القليل..

فلا تكره ما وقع عليك اليوم، فقد تحمده غدًا، وسينكشف الغطاء عن البلاء، فإذا به محض العطاء!

«يـوَدُّ أهلُ العافيةِ يومَ القِيامةِ حينَ يُعطى أهلُ البلاَءِ الثَّوابَ لو أنَّ جُلُودَهُم كانتْ قُرِضَت في الدُّنيا بالمقارِيضِ». [١]

❍ إن الله -تبارك وتعالى- لا يأخذ منك شيئًا ثم لا يُعوِّضك عليه، وإنما هو اختبار يختبرك به، وهذا الاختبار ليس لقوّة بدنك وصلابة جسدك، بل لقوّة علاقتك بالله، وإيمانك به، وتوكلك عليه..

فإذا أخذ منك مالم تتوقَّع ضياعه، فسوف يعطيك ما لم تتوقَّع تملّكه، **«فإن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى»**

❍ لقد أعطاك الله -تبارك وتعالى- أشياء لم تطلبها منه، فلا يعجزه -سبحانه- أن يُعطيك منها ما تطلب، وأن يمنحك ما ترغب، وأن يجود عليك بما تتمنَّى من غير أن تتعنَّى...

وخيرةُ الله لك، خير لك من خيرتك لنفسك، وتدبير الله لأمرك أفضل -بما لا قياس له- من تدبيرك لذاتك..

فأنت العاجز وهو القدير..

وأنت الجاهل وهو العليم..

وأنت الهيِّن وهو المهيمن..

---

(١) (رواه الترمذي وابن ماجه، وحسَّنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٤٠٢) عن جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



وأنت الفقير وهو الغني..

وأنت الضعيف وهو القوي..

وأنت المتخبِّط وهو الحكيم..

وأنت المحتاج إليه بذاتك ومن كل وجه، وهو الغني عنك بذاته ومن كل وجه..

فلا غنى بك عن ربِّك طرفة عين، لأنه إذا وكلك لنفسك فقد وكلك لفقر وحاجة وفاقة وإفلاس!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أي الأعمال أفضل؟، قال: «**الإيمان بالله، وتصديق به، وجهاد في سبيل الله، وحج مبرور**»، قال: أريد أهون من ذلك يا رسول الله، قال: «**أهون عليك من ذلك: إطعام الطعام، ولين الكلام، والسماحة، وحسن الخلق**»، قال: أريد أهون من ذلك يا رسول الله قال: «**أهون عليك من ذلك؛ أن لا تتَّهم الله في شيء قضاه عليك**»[1].

فأحسن في الله الظّنَّ، واطلب منه الخُلفَ الطيب والعوض الحسن، فالعوض من الله دائمًا أجمل وأكمل وأفضل، فإنه لا يأخذ منك شيئا إلأ عوضك خيرًا منه..

(١) (رواه أحمد في المسند، وصححه الالباني في صحيح الترغيب والترهيب ١٣٠٧) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه.



❍ ومن كرمه المدرار وعطاياه الكبار؛ أنه يأخذ منك اليوم ليعطيك غدًا..

❍ ويحرمك الآن من شيء تُحبُّه ليرحمك لاحقًا بأشياء يُحبُّها وتُحبُّها..

❍ ويسلب منك بعض ما ترغب، ليعوِّضك بما فيه نفع العاجل والآجل، وسعادة الدنيا والعقبى..

❍ ويصرف عنك ما تحب لشرٍّ لا تعلمه، ويقرِّب منك ما تكره لخير لا تعلمه..

❍ ويمنع عنك ما تحب ليشغلك بما يُحِب...

فهو يأخذ، ليعطي..

ويَحرِم، ليَرحَم..

ويُحزنك اليوم ليُفرحك غدًا..

ويُبكيك الساعة ليُضحكك مستقبلًا..

فمنعُه حكمة، وعطاؤه رحمة!

﴿..إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ..﴾ [الأنفال: ٧٠].

❍ وربما يأخذ منك شيئًا تُحبُّه لتدرك أهمية المحبوب في حياتك قبل أن تفقده للأبد، فليس من المعقول والمقبول أن تنتظر سقوط الطائرة أو غرق السفينة لتخبر الناجين من أهلها بأنك تحبُّهم!



وفي الله عِـوَض عن كل فائتٍ، وغنى من كل أحدٍ، وما من الله عوض..

واذا جـاء العوض من الله أنسـاك مـا فقدت، لأنه يـأتي جابرًا لكسر قلبك، مرضيًا لنفسك، مطيِّبًا لخاطرك..

فـلا يكن في صدرك حرج مما أُخذ منـك، فإنما أخذه ليدَّخره لك في يوم القيامة..

فخبىء كنزك عند ربِّك!

وما كان مخبوءًا لك عند الله، فهو خير لك مما كان في يدك، فما عند الله خير وأبقى، وأهنأ وأمرأ، وأجلّ وأجمل، وأعلى وأغلى...

فإذا سألتك نفسك: لماذا لم يحدث لي كذا، فقل لها: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وإذا لامـك اللائمون وعاتبك المعاتبـون، فقل لهم: ﴿ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]؟!





ويلطف بحالك...

تُوجِعُك الكلمات الجارحة..

وتفجعك الأحداث المحزنة..

وتؤلمك المواقف المؤذية..

فينعصر قلبك حزنًا..

وتضيق نفسك كمدًا..

ويمتلىء صدرك نكدًا...

فمن يحنو عليك بعطفه، ويغمرك بلطفه، ويشملك برأفته إلا الله؟!

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ١٩]

وكم لله من لطف خفيٍ ... يَدِقُّ خفاه عن فهم الذكيِّ

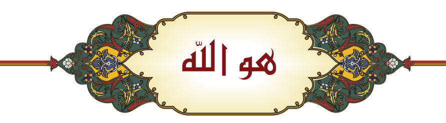
وكم يُسر أتى من بعد عسر ... وفرَّجَ لوعةَ القلب الشجيِّ

وكم همٍّ تُساء به صباحًا ... فتعقبه المسرّة بالعشيِّ

إذا ضاقت بك الأسبابُ يومًا ... فثق بالواحد الأحد العليِّ

ولا تجزع إذا ما ناب خطبٌ ... فكم لله من لطفٍ خفيِّ

❍ إن لحظة لطفٍ شفيقٍ من الله -تبارك وتعالى- تعبر حياتك كطيف رقيق، تنسيك جرح الأمس، وألم الماضي، وتحيل الأحزان العميقة إلى ذكرياتٍ عتيقة، مرقومة في سجلِّ الأيام!



وبلطفـه الخفيّ تتلاشـى الأحزان، وتذهـب الهموم، وتغيب الأوجاع، وتنتهي الآلام....

فـالله خالق الأنس في سـاعة الوحـدة، ورازق الفرج في لحظة الضيق، وباعث اللطف في موقف الكربة..

لطائـف اللهِ وإن طـال المـدى كلمحة الطرف إذا الطرف سجى

كـم فـرجٍ بعـد إيـاسٍ قـد أتى وكم سـرورٍ قد أتى بعد الأسى!

❍ وما خفي عنك من ألطافـه العجيبة أعظم مما رأته عينك، وسمعته أُذنك، وأدركته جوارحك، ولمسته -واقعًا- في حياتك..

فكم رأيت من ألطافه العجيبة في حياتك ما أذهلك، فكيف بما لم تر؟ ولم تشعر به حين جرى؟

❍ وسـتدرك -لاحقًا- أن الله -تبارك وتعالى- بلطفه الخفي نجَّـاك مـن كثير مـن بواعث قلقـك، وأسـباب خوفـك، وحزنك وألمك، وسـاق لك الخير -بلطفه- من حيث لا تدري، وفتح لك أبواب الفضل من حيث لا تشعر..

﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

فـالله يكفيك عن كل أحـد، وفي كل وقت، وبأي ظرف، وعن كل شـيء، وهـو يغنيك عن غيـره بخيـره ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٢].

فكم حماك مما يؤذيك..

ونجَّاك مما يخيفك..

ومنع عنك ما يؤلمك..

ودفع عنك ما يحزنك..

ورفع عنك ما يوجعك؟!

وكم قضى حاجتك، وأعطاك سؤلك، وأجاب دعوتك؟!

وكلما كنت له عبدًا منيبًا، كان لك الله سميعًا مجيبًا، رؤوفًا، حبيبًا، لطيفًا، قريبًا...

وإن زدت.. زاد!

﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [البقرة: ٢٠٧]

فهل ذقت حلاوة العبودية لربِّ البريَّة، لتذوق نعيم الرأفة ولذة اللطف؟!

❍ إن البعض من أقوياء وأغنياء خلق الله إذا نظر إليك بنظرة عطف وعاملك بلطف لربما أعطاك وأغناك، فكيف لو أن الله -اللطيف الخبير- نظر إليك بنظرة لطف، وشملك برحمته، وغمرك بحنانه، وأغدق عليك من فيوضات إحسانه؟!

فهل ستبقى لك حاجة لم تقض، ورغبة لم تأتِ، وطلب لم يتحقق؟!



كلا! بل ستأتيك الآمال صاغرة، والأحلام راغمة، والطلبات أطوع لك من بعيرك الحمول وغلامك الخجول...

فالله -تبارك وتعالى- أقوى من حلمك المعاند، وهمك الجاثم، وحزنك الساكن في سويداء القلب!

❍ ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ [الشورى: ١٩].

فيلطف بك في رزقك، ويسوق لك من الارزاق ما ترجو، وفوق ما تأمل، وبما عملت ومما لم تعمل، وقد يصرف عنك منها ما تطلب، ليختصك بما ينفع، ويكرمك بشيء مما تحب ليكون قوَّةً لك فيما يُحِب، ويزوي عنك بعض ما تحب ليكون فراغًا لك فيما يُحِب، لأنه اللطيف بك، والعليم بما يصلح لحالك في العاجل ومآلك في الآجل..

﴿.. أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤]؟!

❍ لطُفَ علمه بالأشياء، فلم يخفى عليه منها شيء، فهو عليم بالنوايا، وما في الخفايا، وما بين الزوايا من خبايا..

فإن أنكر الناس فضلك، وجحدوا معروفك، وطعنوا في نيَّتك، ورموك بما أنت منه براء، فيكفيك أن علم الله بك أغناك عن علمهم، ولطف الله بك كفاك عن لطفهم...

﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

❍ ويلطف بك -تكرمًا وتفضلًا- فيما جرت به المقادير..

فلا يكلِّفك بما لا تُطيق..

ولا يأخذ منك كل ما في يدك..

ولا يسلِّط عليك كل أعدائك..

ولا يفضح كل أخطائك..

ولا يعاقبك بكل خطاياك...

لأن رحمته سبقت غضبه، ولطفه لا حدَّ له..

فلتأوي إلى ركنٍ شديد.. إلى الله أمان الخائفين، ومفزع الطالبين، ومطمع المحتاجين!

وإذا كان مولاك معك؛ حماك، وكفاك، وآواك، وأعطاك، وأغناك...

﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ ﴾ [الزمر: ٣٦]؟!

أما يكفيك أغنى الأغنياء عن الفقراء؟!

أما يكفيك أقوى الأقوياء عن الضعفاء؟!

أما يكفيك ألطف اللطفاء عن كلِّ من على الغبراء؟!

بلى، والله بلى!

﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٤].



ويحرسك في منامك...

تبات في فراشك خالي البال، طيِّب الحال، غير خائف أو متوجِّس، لعلمك بأن الله -تعالى- يحفظك في منامك، ويحرسك في فراشك، ويرعاك في مخدعك، ويكلؤك في مرقدك، ويوكل بك ملائكته الكرام ليكونوا لك حفظة بأمره وفضله...

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [الروم: ٢٣].

❍ ولو أنه -سبحانه- أوكل بك تدبير نفسك -لا أقول تدبير الأفلاك والأملاك والأجرام والأرض بمن فيها وعليها- وإنما تدبير أمر بدنك، -ولا أقول شهرًا أو دهرًا أو عمرًا- بل ليلةً واحدةٍ من عمرك كله، لعجزت عن غفوة تغفوها ونومة تنامها لأن أمر نفسك بيدك؟!

فكيف تغفو، ويسكن جفنك، وتغمض عينك، وقد يكون في غفوة السَّحر نهاية العمر؟!

ستضع رأسك مجهدًا على وسادتك، لتتذكر أن قلبك يخفق في جوف صدرك بثمانين نبضة في الدقيقة الواحدة تقريبًا، دون علمك أو أمرك أو شعورك أواختيارك، فهل ستنام وقد أوكل بك ربُّك أمر قلبك؟!



فإذا نمت فمن يحركه؟ ومن يتحكم به؟ ومن يُجري الدماء في تجاويفه؟ ويُمرُّها في عروقه؟

هذا سؤال كبير لم تسأله لنفسك من عشرات السنين وقلبك ينبض في اليوم الواحد (١١٥٢٠٠) نبضة، وفِي العام الواحد (٤٢٠٤٨٠٠٠) نبضة تقريبًا، لا يد لك فيها، ولا سيطرة لك عليها؟

فهل ستنام؟!

إنه الموت إذًا، فلا نوم، ولا سبات!

❍ وستطرح جسدك المنهك على فراشك لتنام، فتتذكر أنه قد أوكل بك تدبير رئتيك، وإدخال الشهيق فيهما وإخراج الزفير منهما، فإذا نمت فمن يحركهما ويتحكم فيهما؟!

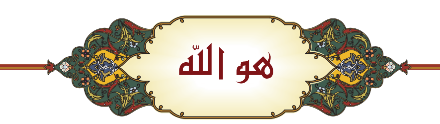
ومن يُجري الهواء في مجاريهما، ويُدخل نقيّه ويُخرج مكدَّره، في حركة سهلة يسيرة مُدبَّرة؟!

فهل ستنام وأمر تحريك رئتيك بيديك؟!

إنه الموت إذًا، فلا نوم، ولا سبات!

❍ وطعامك الذي ولج في بطنك بيدك، فمن يجريه في مجراه من مبتداه إلى منتهاه؟!

من يهضم مكوناته؟ وكيف تمتصُّ عصارته؟ ومن يُخرج فضلاته؟



ألا يمكن أن يكون الطعام -وهو قوام الحياة- هو تلك الليلة سبب الممات؟!

إذًا فلا نوم، ولا سبات!

❍ وأنت نائم في سباتك العميق من يمنع عنك الهوام أن تدخل إلى بطنك، والحشرات في فمك، أو أن تلج الدوابّ الصغيرة في منخرك وتستقر بأُذنك؟!

ومن يجعل نومك هنيًا، رضيًّا، ماتعًا، نافعًا؟

إنه الله! ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ﴾ [الفرقان: ٤٧].

❍ ومن ينبِّهك من نومك، ويوقظك من مرقدك، ولو شاء لجعله بياتًا، وسباتًا، ومماتًا، لا يقظة بعده إلا في ظلمات اللحود؟!

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٧٢ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧١ - ٧٣].

فمن جاد عليك بالسكون والكمون، وأكرمك بالراحة والمنام، وأيقظك منه بعد الوفاة؟!

إنه اللّٰه، لا أحد سـواه، الحيّ الذي لا يموت، ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

و«**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام**»(١).

---

(١) صحيح مسلم (١٧٩) عن أبي موسى الأشعري.



ويسيغ شرابك...

تعطش كبدك، ويجف ريقك، ويلهث لسانك، فتدرك أنك في حاجة لشربة ماء تُطفىء لهيب العطش في أوردتك، وتروي لفح الظمأ في جسدك..

فتشربها هنيئًا مريئًا، ليحلُّ الريُّ بها بعد العطش، والخصب بعد الجدب، والراحة بعد العناء، والانتعاش بعد الذبول...

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [يونس: ٦٠].

إن أجسادنا كأرضنا تحتلُّ المياه فيها ثلثي وزنها، فلا حياة بغير ماء، ولا عيش بدون رواء...

﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]

❍ فمن أخرج عذبه من أُجاجه، وميَّز صافيه من هماجه؟

ومن أساغه للفم، وطيَّبه للبدن، وجعله سببًا للبقاء إلا خالق الماء والهواء والغذاء...

إنه الله!

﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٧٠].

❍ خلق الله الماء بلا طعم، ولا لون، ولا رائحة، وذلك من بديع صنعه وكمال خلقه، فَلَو كان ذَا طعم لخرجت كل الطعوم بطعمه، ولو كان ذَا لـون معيَّن لكانت كل الألوان بلونه، ولو كان ذَا رائحة محددة لخرجـت كل الروائـح علـى رائحتـه.. ولحُـرم الناس مـن اختلاف الطعوم والألوان والروائح، فسبحان من جعل الماء بهذا النقاء!

❍ ومن أنزله من السماء ماء نقيًّا طاهرًا؟

ومن فجَّره ينابيع في الأرض متدفقًا؟ ومن أجراه في مجراه إلا الله؟!

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ .. ﴾ [الزمر: ٢١].

ومن بيده منع غيثه وحبس مطره من السماء حتى ما تهطل منه قطرة ماء؟

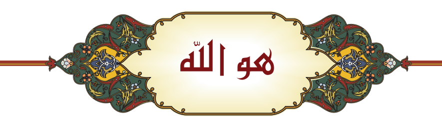
ومـن بيـده إغارة مائـه في بُطُـون الأرض حتى ما تنـزُّ مناكبها بنقطة منه إلا الله؟!

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك: ٣٠]؟!

﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٨].

❍ إن شربة الماء –أساس الحياة– وقد تكون سبب الممات..

فكم من شربه مكدَّرة عذَّبت شاربها، وشرقة أودت بصاحبها، وغرفة ملوثة أهلكت طالبها؟



○ وكـم من قطرات ماء تجمعـت قطرة من بعد قطرة، ونقطة في إثـر نقطـة -بقـدر الله- فكانت سـيولًا جارفة، وأمواجًـا متلفة، وفياضانـات مؤسـفة، أهلكت الحرث والنسـل، وأغرقـت العباد والبلاد، وأماتت من كانت سببًا في حياتهم وقوامًا لعيشهم!

واسأل قوم سبأ، فلديهم الخبر اليقين...

﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [سبأ: ١٦ - ١٧].

○ إن من لذائذ الحياة ومتعتها تنوع الأشربة فيها..

فأحيانًا تشرب حامضًا، وأخرى حلوًا..

وأحيانًا حارًّا، وأخرى باردًا..

وأحيانًا عذبًا فراتًا..

وأخرى ملحًا أجاجًا..

ومرات تشربه خليطًا ممزوجًا، وأخرى صافيًا نقيًّا..

ولكلِّ واحد فيها نكهته ومزاجه، ومتعته وروعته..

فمـن أطاب الحياة بهـذا التنوع البديع الماتـع النافع إلا الله؟! -جلَّ الله!-.



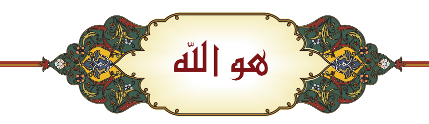
وإذا ترى صخرًا تفجر بالمياه	فســـله من بالماء شقَّ صَفَاك؟
وإذا رأيتَ النهرَ بالعذبِ الزُّلال	جرى فسَلْه من الذي أجرَاك؟
وإذا رأيتَ البحرَ بالملحِ الأُجاج	طغى فسَـــلْه من الذي أطغاك؟
ســـتجيب ما في الكون من آياته	عجب عجاب لـــو ترى عيناك
ربي لك الحمد العظيم لذاتك	حمـــدًا وليس لواحـــد إلاَّك

إنها نقطة واحدة، ولكنها من أعظم نعم الله، فهي تعدل الحياة!

« إن أوَّلَ ما يُســأَلُ عنه يوم القيامة -يعني العبد من النعيم- أن يقال له: ألم نُصحَّ لك بدنك، ونُروِّيك من الماء البارد»؟![1].

---

(١) (رواه الترمذي وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٣٣٥٨)) عن أبي هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



ويدر ضرعك...

الله لطيف بعباده!

يخلق لهم خلقًا من بعد خلق..

ويسخِّر لهم رزقًا من بعد رزق..

ويهيىء لهم في حياتهم ما ينفعهم، تيسيرًا وتسهيلًا، وتسخيرًا وتذليلًا..

ولولا رحمة ربي لعسُر الرزق، وضاق العيش، وتكدَّرت الحياة....

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٧٠].

❍ فها هو -سبحانه، وجلَّ شأنه- يُسخِّر لهم الحيوان البهيم، فيحتلبون ضرعه، ويأكلون لحمه، ويجمعون سمنه، ويدبغون جلده، وينسجون وبره، وينتفعون برجيعه، ويكون لهم عُدَّة في شدَّتهم وزينة في رخائهم، ومصدر عزِّهم وفخارهم...

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

❍ ومنه ما يحملهم من بلدٍ إلى بلد، ومن مكانٍ لآخر، فمن ذلَّل ظهره؟ وكيف يسَّر أمره؟!

﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٧، ٨].

❍ ومنه ما يكون بهجة للخاطر، وروضة للناظر، وسلوة للنفس، وفرحة للقلب، ونشوة للفؤاد...

❍ ومنه ما يحرس بيوتهم، ويحفظ ماشيتهم، ويحوطهم من ورائهم، وما يكون منعة لهم من عدوهم..

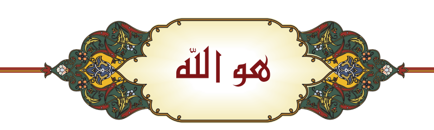
﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ..﴾ [الأنفال: ٦٠].

❍ ومنه ما يدرُّ بالحليب الصافي، فيخرج ذلك الشراب الطيب من بين فَرْثه ودمه، وشحمه ولحمه، وعصبه وعظمه، لبنًا خالصًا لا قذى فيه ولا أذًى..

﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

فمن ذلَّل ظهرها، وأدرَّ ضرعها، وأساغ لحمها، وسخَّر نفعها **إلا الله؟!**

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ٧٢ وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ - ٧٣]؟!



❍ ولو تم حساب ما يؤكل من طائر « الدجاج » فقط في يوم واحد من أيام الدنيا في أنحاء الأرض، لذهب اللبّ وطاش العقل وحار الفؤاد، فمن سخَّر هذا الرزق الكثير والخير الوفير لأهل الأرض جميعًا إلا من تكفَّل بأرزاقهم وضمن لهم قوتهم؟!

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

وعلى ذلك فقس ما يؤكل من الطيور والأسماك والبهائم والفواكه والخضروات وسائر المطعومات في اليوم الواحد من سكان المعمورة..

فكيف بكل الأيام والأعوام من كل المخلوقات في البر والبحر والجو وأطباق الثرى؟!

ذلك ما لا يقدر عليه إلا الخالق العظيم والرزاق الكريم -سبحانه-.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ [هود: ٦].





ويرفع ذكرك...

النـاس لا يعلمون عنك، ولا يدركون منك إلا ما رأته عيونهم وسمعته آذانهم..

وقد علموا عنك شيئًا، وغابت عنهم منك أشياء...

فـلا تغترَّ بثناء النـاس عليك، ومدحهم لـك، وإعجابهم بك، فربمـا غرَّهـم منـك؛ سـتر الله عليـك، وحفظـه لك، فأظهـر منك الجميل، وستر عنك القبيح، وأحاطك بكنفه وستره ورعايته..

فكم من مغرور بالسِّتر عليه، ومستدرج بنعم الله عنده، ومفتون بمدح الناس له، وهو لا يساوي عند الله حبَّة خردله!

والسـؤال المهم الملهم: هل سـيبقى قولهم فيك لو ظهرت لهم خوافيك؟

الله وحده.. هـو من ينبغي أن ينصرف قلبك له واهتمامك به، فتهتم برضاه وبوصفك عنده، وصفتك لديه..

فمن أنت عند الله؟!

ما اسمك في السماء؟!

بماذا يثني عليك الله؟!



❍ فهل أوسمة المجد، ونياشين الملوك، وتيجان السلاطين، تساوي شيئا مذكورًا أمام ثناء الله على رسولنا محمد ﷺ وقوله فيه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]؟!

❍ وهل أموال الدنيا، وكنوزها، وجواهرها، ودررها، تساوي مثقال ذرة من ثناء الله على عبده ونبيه أيوب ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠]؟!

❍ وهل حفاوة الخلق، واحترام البشر، وتقدير الناس تساوي شيئًا مع الاجتباء الالهي، والاصطفاء الرباني لمريم ﴿ ..يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢] واجتبائه لآل إبراهيم وآل عمران ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٤]؟!

❍ وهل شارات الدنيا، ومناصبها، ومراتبها، تعدل شيئًا مع مدح الله لسيدنا إبراهيم ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠] ثم ثنائه على ولديه المباركين ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٢]؟!

❍ وهل كل قصائد العالم، وفرائد الأدباء، وشواهد الشعراء، ومشاعر الخلائق، توازي ثناء الله على عبديه لوط ونوح ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ .. ﴾ [التحريم: ١٠]؟!



❍ وهل عز الدهر، وشرف العمر، وعلو الذكر، تعدل شيئًا مذكورًا أمام مدح الله لأنبيائه الأخيار إسماعيل وإدريس وَذَا الكفل، وحديثه عنهم بقوله فيهم: ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٦]؟!

❍ وهل شهادات التميز، وشارات الإبداع، وجميع الجوائز والحوافز، تساوي وزن هباءة مع مدح الله لصالحي عباده وأنبيائه زكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإشادته بهم وقوله فيهم ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٥]؟!

فسبحانه ما أعظم جوده، وما أكرم فضله!

فهو الذي خلقهم، وسواهم، وهداهم، واصطفاهم، واجتباهم، وعلمهم، وأعانهم، ووفقهم، وسددهم، وأسعدهم، ثم يُحسن إليهم، ويثني عليهم، ويمدحهم بما وفقهم له، واصطفاهم به، ﴿ ..وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٨٧].

فلا إله إلا هو، ما أحسن إحسانه، وما أجود جوده، وما أكرم كرمه، وما أفضل فضله، وأروع آلائه وأوسع نعمائه!

﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [آل عمران: ٧٤].

❍ فلا يغلب جهل الخلق بك على علمك بنفسك ومعرفتك بحالك..

ولا تغترَّ بستر مولاك لك، وثناء الخلق عليك..



فأنت أعلم الخلق بنفسك، والله أعلم بك منك بنفسك!

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٤ - ١٥].

ولـن ينفعك ثنـاء الناس جميعًا إذا كان الله -تعالى- سـاخطًا عليك، وغاضبًا منك..

ولن يضرك قدح الناس كلهم فيك إذا كان الله -تعالى- راضيًا عنك، ومحبًا لك..

ولن ينفعك أن ينجو الناس وتهلك، ويُسـعد الخلق وتشـقى، ويُدنى غيرك منه وأنت تُقصى عنه..

❍ إن الناس لن يُغنوا عنك من الله شيئًا، فليست الجنَّة بأيديهم، فيدخلونك فيها.. وليست النار في أيديهم، فيخرجوك منها..

ذلك «هو الله» ربُّ العالمين!

فقلوب العباد في قبضته..

وأبصارهم تحت حكمه..

وألسنتهم تنطق بأمره..

فلا يعلمون عنك إلا ما علَّمهم الله..

ولا يجهلون منك إلا ما ستره الله عنهم..

ولا يتكلمـون إلا بما أذن الله بـه لهم ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢].



فلتجعل الهمَّ همّا واحدًا، وهو: رضى الله عنك، وحبه لك، وفرحه بك، فإنه إن رضي عنك.. أرضاهم، وإن سخط عليك.. أسخطهم، ولن ينفعك مدحهم شيئًا!

«من التمسَ رضاءَ الله بسخط الناس رضي الله عنه، وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس».(١)

وما أسرع ما يتبدَّل مدحهم ذمًّا، وثناؤهم شتمًا، وحبُّهم بغضًا، لسوء ظنِّهم بك أو لسوء فعلك!

وقد تذهب حسناتك جميعًا بموقف عابر وحادثة واحدة..

فلا تركن لمن تحرِّكهم الأطماع، وتسيطر عليهم الطِّباع، وتؤثر فيهم الإشاعات، وتحكمهم الأمزجة والتقلُّبات..

ولا تحفل بمدح مادح أو قدح قادحٍ إلا بمن مدحه زينٌ وذمُّه شين، و«**هو الله**» ربُّ العالَمين.

«**هو الله**»، وكفى!

(١) (رواه الترمذي وابن حبان، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٣١١)) عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

ويهبك الولد...

خلقك الله من عدم..

وأَسْبَغ عليك وافر النعم..

وأطعمك من جوع..

وأرواك من ظمأ..

وكساك من عري..

وآمنك من خوف..

وأكرمك بفضل الإيجاد والإمداد..

وأحسن إليك بنعمة الأصل والفرع..

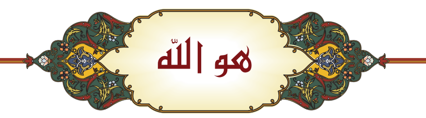
ووهبك أبوين كريمين، وعائلة طيبة، وذرية صالحة، وزوجة حبيبة، وقرابة ودودة...

وتلك جنّة معجلة، وثمرة دانية، ونعيم سريع!

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا..﴾ [الكهف: ٤٦].

فالأولاد الأصحاء والبنات والأبناء الطيبون؛ زينة في الرخاء، وزاد في الشدَّة وعند البلاء..

فبهم تنشرح الصدور، وتطيب القلوب، وترتفع الرؤوس، وتبتهج النفوس...



وهم غصون شجرة أنت أصلها..

وكواكب سماء أنت قمرها..

وفروع جداول أنت نبعها...

وهم ثمرة القلب، وحشاشة الفؤاد، وريحانة العمر، ورحيق الحياة، وسلوة النفس...

تطيب بوجودهم الحياة..

وتسعد بحركتهم البيوت..

وتأنس بأنفاسهم المنازل..

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ .. ﴾ [آل عمران: ١٤]

وهم أمنية الماضي، وسلوة الحاضر، وأمل المستقبل..

فعليهم –بعد الله– تُعقد الآمال، وتمتد الأجيال، وتستمر الأنسال، وتمضي الحياة..

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا .. ﴾ [الشورى: ٤٩ – ٥٠].

فسبحان من لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، وأكرم من شاء من الآباء والأجداد بنعمة الأبناء والأحفاد!



﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٢].

فمن أسعد قلبك بضحكاتهم؟

ورفع رأسك بنجاحاتهم؟

وأبهج خاطرك بخدماتهم؟!

ومن قوَّى بهم ضعفك؟

وكثَّر بهم عددك؟

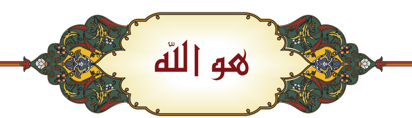
ووسّع بهم رزقك؟

وأسعد بهم خاطرك؟!

إنه الله الوهاب!

❍ نادى زكريا عليه السلام في ربِّه بعد أن دقَّ جسمه، ورقَّ عظمه، واشتعل رأسه شيبًا، فقال: ﴿.. فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم: ٥ - ٦].

فجاءته البشرى كفلق الفجر، فغلبته الدهشة وأصابته الرعشة ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ [مريم: ٨].



﴿ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم: ٩] وهذا اليقين بقدرة الله ربِّ العالمين، هو سرُّ سقف الآمال الكبار...

❍ وبلغ بإبراهيم عليه السلام الكِبَر مبلغا عظيمًا، لكن حلمه ما زال يكبر معه، ويطول بطول عمره ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [آل عمران: ٣٨].

وجاءته البشرى بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴾ [الحجر: ٥٤، ٥٥].

﴿ .. إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [آل عمران: ٣٨] وهذا اليقين بإجابة الله ربِّ العالمين، هو سرُّ سقف الآمال المستحيلة...

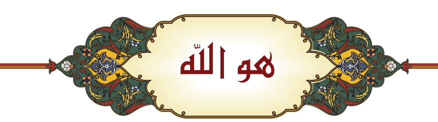
فما كان عندك مستحيلًا، وفي حساباتك ضربًا من الخيال، فهو عند الله غير عسيرٍ بل هو عليه سهلٌ يسيرٌ..

❍ وهذا سليمان عليه السلام يطلب من ربِّه القدير ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [ص: ٣٥].

وهذا ملك أشبه بالمستحيل..

فكانت النبوة، والملك، والعلم، والحكمة، والريح، والجن، والطير، والإنس، والخيل، والنمل، والوحش..

﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨] هذا اليقين بكرم الله ربِّ العالمين، هو سرُّ السقف العالي من الآمال..



❍ فارفع سقف طلباتك، فأنت ترجو «**الوهاب**»، وتطلب «**الكريم**»، وتسأل «**القادر**»، وتأمل «**الرؤوف**»، وتدعو «**اللطيف**»، فهل ستعود محرومًا، مخذولًا، مدحورًا؟!

حاشا لجود الجواد وكرم الكريم -سبحانه!

«إنَّ ربكم حيي كريم، يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أنَّ يردهما صفراً خائبتين»(١)

فوالله!

ما امتدَّت له يدٌ وعادت خائبة، ولا طمعت في فضله نفسٌ ورجعت خاسرة!



(١) رواه الترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١٧٥٧) عن سلمان الفارسي رضي الله عنه.



وينجيك من الأخطار...

غاب عن بيته لساعات معدودة، ولمَّا دخل فيه وجد اللصوص قد سبقوه إليه، وأخذوا بعض ماله وحُلي عياله..

فأدركته الحسرة المرَّة على ما أُخذ منه، فقال في توجع وتفجُّعٍ: آهٍ! لو أني تقدمت قليلًا، وعدت إلى البيت سريعًا لربما وجدتهم وأمسكت بهم!

فقال له جاره: بل قل: الحمد لله الذي أخَّرني قليلا!

فقال: ولم؟!

فقال له: أوتحسب أن اللصوص سيقبِّلون رأسك، ويعتذرون منك؟ بل سيهاجمونك ويؤذونك، وربما يقتلونك..

فأي الخسارتين أهون عليك؛ بعض مالك أو حياتك كلها؟

حنانيك بعض الشر أهون من بعض!

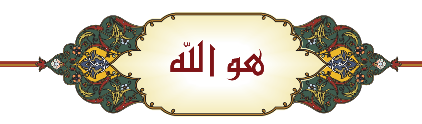
﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرًا كَثِيرًا﴾

[النساء: ١٩]

لقد نجَّاك الله من كثير من الأخطار..

وحماك من العديد من الأضرار..

وصرف عنك أنواعًا شتَّى من الشرور..



وحفظك من الكثير من المهلكات والآفات..

علمتها أحيانًا وجهلتها أحيانًا أخرى...

فها هو الموت يتخطفُ الناس من حولك، والمنايا تحصدهم من بين يديك، وقد نجَّاك الله من الحادث المريع، والحريق المتلف، والسقطة القاتلة، والأكلة المسمومة، والإبرة الملوثة، والسبع الضاري، والزلزال المدمر، والبركان المتفجِّر، والغرق المُهلك، والسّيل الجرَّار، والطعنة النافذة، والضربة القاضية، وحماك من العقرب اللّاسعة، والحية اللّادغة، والحفرة العميقة، والهوَّة السَّحيقة، والجدار الساقط، والآفات المنتشرة، والأوبئة الجماعية، والمجاعات المهلكة، والفياضانات المدمِّرة، وكل هذه الآفات ذهبت بأرواح وأفراح، وأهلكت أنفاسًا ونفائسًا، وأبادت رجالًا وأموالًا...

وأقرب دليل على حفظ الله لك، وحمايتك طول حياتك؛ أنك تحمل كتابي هذا بين يديك، وتقرأ فيه بكامل حواسك وجوارحك، فمن نجاك من كل تلك الشرور إلا ربُّك القدير؟!

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٍ﴾ [الأنعام: ٦٤].

وما أصابك من هذه الأضرار فبقدر مقبول تحتمله، وبشيء تستطيعه، تخفيفٌ من ربِّكم ورحمة!

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وكل مصيبة دون الدِّين هيِّنة..

وكل خلل دون المعتقد ميسور..

وكل نقص دون الإيمان مقبول..

وكل بلاء دون التوحيد سهل محتمل..

كل المصيبات إن جلت وإن عظمت
إلا المصيبات في دين الفتى جللُ

فدينك رأس مالك، وشرف حالك ومآلك، وهو أغلى عليك من مالك وعيالك، فكيف ترضى فيه بالبخس والنقصان؟!

وكلُّ كسرٍ فإن الدِّين جابره   وما لكسر قناة الدين جبران

إن المسلوب من سُلب دينه..

والمحروم من حُرم من الأجر..

والمفجوع من فجع في إيمانه..

فهو الخسران الذي لا ربح فيه، والحرمان الذي لا مكسب معه، والغبن الذي لا أجر عليه..

والمصيبة الرهيبة في الدين تكون بقسوة القلب، وترك الواجبات، وفعل المحرمات، والوقوع في البدع والمحدثات، ولن يوقفها الجزع منها، ولا تنقص بالإغضاء عنها، ولا السكوت



عليهـا، فرضاك بها مصيبة أكبر من مصيبـة وقوعها، وصبرك عليها يزيدك إثمًا بها..

وهـي ليسـت كالمصيبـة في الدنيا تقع بغير رضـاك، وتحصل بـدون رغبتك، بل إنـك تقع فيها باختيارك وقـرارك، وتمضي فيها بمحض إرادتك، فكيف تصبر على خسارة دينك ونقص إيمانك؟!

دِينُك.. دينك..
لحمك ودمك!





ويغفر ذنبك...

ما وقع عاقلٌ في حفرة بأشدَّ عليه من حفرة الخطايا..

ولا صُفِّد بقيد أوجع له من كلاليب الذنوب..

ولا أصاب نفسه بِوَحشة أقسى عليه من وحشة الموبقات..

ولا تلطَّخ بسوءة أقذر عليه من قاذورات السيئات..

ولا غامر أحدٌ بمستقبله القادم كمثل الذي يرسل الجرائم والعظائم بين يديه وهو سائر إليها وقادم عليها..

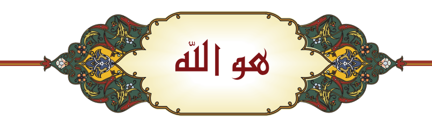
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦].

وما نزلت نازلة، ولا حلَّت مصيبة، ولا وقعت كارثة، ولا حصلت بليَّة، ولا حدثت رزيَّة إلا بشؤم المعاصي ولؤم الذنوب ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠].

وهي حظُّه من سوءات الدنيا، ونصيبه من مكدِّرات الحياة، وقسمه من نكد العيش..

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤].

فما وجه الخلاص، وسبب النجاة، وسبيل السلامة؟ فقد ملّت النفس من عصيانها، وسئمت من تمردها، وتنكَّدت في معيشتها، فإن الله لم يخلقها لهذا الأسى!



﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ..﴾ [النساء: ٢٧].

ومن رحمة الله بك، وفضله عليك؛ أن فتح لك باب التوبة ليغفر لك..

وسمح لك أن تتخلَّص من عقوبتها وعاقبتها..

وأذن لك أن تتخفَّف من أحمالك منها..

وفتح لك باب المكفِّرات الماحيات..

وأمرك بإتباعها بنقيضها، فالحسنات بعد السيئات، والطاعات خلف المعاصي، والإقبال عقب الإدبار، والتعرُّض لنفحات جود الله بعد لفحات الإعراض عنه، لتكون أنقى وأتقى وأرقى وأبقى....

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

فلا تستوحش من كبر الذنوب، فعفو الله أكبر..

ولا تيأس من كثرة الخطايا، فمغفرة الله أكثر..

ولا تقنط من وفرة السيئات، فرحمة الله أوسع..

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

أيا من ليس لي منه مجير ... بعفوك من عذابك أستجير

أنا العبد المقر بكل ذنب ... وأنت السيّد المولى الغفور

فإن عذبتني فبسوء فعلي ... وإن تغفر فأنت به جدير

أفرُّ إليك منك وأين إلا ... إليك يفرّ منك المستجير



فـلا تفر مـن الله إلا إليه، ولا تكن كالبعير الشـارد، والسـبع المستوحش، والطائر الوجل..

فملجؤك إلى الله وإن هربت..

ومردُّك إليه وإن بعدت..

ومآلك الوقوف بين يديه وإن شردت..

ولن تجد أحدًا أرحم بك من الله..

ولا أحدًا أفرح بتوبتك منه..

فعد إليه نادمًا تلقاه راحمًا!

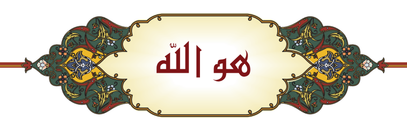
واكسر قلبك له، ليقوِّم عِوجَك..

وأقبل عليه بضعفك يُقبل عليك بقوته..

تعـال إليـه بفقـرك وانكسـارك يأتيـك بغنـاه وكرمـه وجوده وإحسانه..

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ .. ﴾ [الحديد: ١٦].

ينـاديـك وهـو الغنـي عنـك، ويدعـوك وهـو القـادر عليك، ليعطيـك ويرحمـك، ويتوب عليـك، ويغفر لك، ويبدِّل سـيئاتك إلى حسـنات، ويفرح بك مع غنـاه عنك، ويفيض عليك من مودته ومحبته ما يفوق الوصف وما يعجز عنه البيان..



﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

فهو -جلَّ شأنه- يعفو عمن يهفو، ويتوب على كثير الذنوب، ولا يعاجل من عصاه، ولا يُخيِّب من رجاه، ولا يرد سائله، ولا يقنِّط آمله..

فهل هذا الرَّبُّ الكريم، الرحيم، الحليم، يستحق الإدبار عنه، والإعراض عن طريقه، والاستكثار مما يُغضبه؟!

أُفٍ لنفسٍ لا تتوب، ولا تؤرقها الذنوب!

وأُفٍ لقلب لا يحن، ولروح لا تئن، ولفؤاد لا تفزعه عقوبات السيئات، ولا تخيفه خاتمة الخطايا!





ويهبك الصورة الحسنة...

خلقك الله -تعالى- في أحسن تقويم، وأكمل صورة، وأجمل خلقه، وأتم هيأة، ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

❍ وكرَّمك على البهائم، وميَّـزك عن العجماوات، وفضَّلك على سائر الحيوانات..

ولو شـاء لجعلك منها، ولأخرجك من أصلابها، ولكنت من أنسالها..

فلـم يكن الخيـار بيدك، ولا القرار لك، لتكون بشـرًا إنسـيًّا، ومكرمًا سويًّا..

فهذا أمر لم تُستشر فيه..

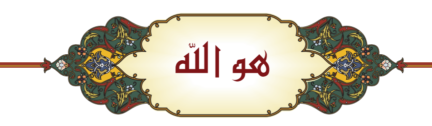
وقَدَرٌ لا تقدرُ عليه..

وقضاءٌ لا دخل لك به..

﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٠].

❍ وأحسـن الله إليـك بحسـن القـوام، وتناسـق الأعضـاء، وجمال الخلقه، وكمال العقل، وتمام الإدراك..

تأكل بيديك، وتمشـي منتصبًـا على قدميك، وميَّـزك بالعقل



والفهم، والحس والشعور، والإدراك والاستيعاب والتخاطب والتواصل..

وفضَّلك على كثير من بني جنسك؛ بحسن لونك، وعذوبة صوتك، وجمال صورتك، واعتدال بدنك، واكتمال أطرافك، وسلامة أعضائك...

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

لقد ركَّب الله أعضاء جسدك في اعتدال واكتمال..

وجعل حركة بدنك في انتظام وانسجام..

وأتم عليك النعمة في كل حركة أو سكون..

وجعلك أجمل مخلوقاته في كل شأن...

فماذا لو كنت تزحف كالحيَّة، أو تقفز كالجراد، أو تعدو كالكنغر، أو تأكل كالشياه، أو تنقر كالدجاج، أو تلدغ كالبعوض، أو تشرب كالزراف، أو تنام كالنعام؟!

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤].

فها أنت -كما ترى- قد أبدع في صنعك ربُّ الورى، وخلقك ممشوق القوام، مشدود العظام، مرفوع الهام، مفهوم الكلام..

فهل بعد هذا الحسن من حسن، وهذا التمام من تمام؟!



وهل بعد هذا الإنعام من إنعام؟!

﴿ ..وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [التغابن: ٣].

❍ ونظـرة متأمِّلـة منك في إبهام كفِّـك، وتناغمه مع أصابعك حوله، تجعلك تلهج بالتسبيح لخالق هذا الإعجاز العجيب، فلولا وجـوده في مكانه لعجزت عن الكثير مـن المنافع والمصالح، وإن اسـتطعت أن تدخل زر ثوبك في ثقبه بـدون إبهامك، فافعل.. ولن تفعل حتى بكلتي يديك!

❍ ونظـرة منك أخرى في تناسـق قسـمات وجهـك، وكيف أن كل أجزائـه لا تصلـح إلا في أماكنها التي خلـق الله الناس عليها تجعلك تشعر بفضل الله عليك، وإحسان صنعه، وكمال خلقته..

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١]؟!

ولـك أن تتصـور وجود فمـك في جبهتـك أو أن أنفك تحت فمـك أو أن عينيك في قفاك أو إحداهما في أعلى رأسـك والأخرى في أسفله...

ستبهت جدًّا من فضاعة الشكل، وشناعة الصورة، وبشاعة المنظر...

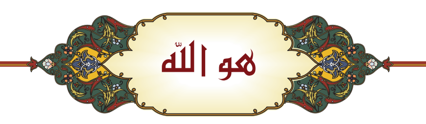
❍ وهكذا كل جزء في بدنك، لا يناسبه إلا مكانه الذي اختاره الله له..

فمن صورنا في أجمل صورة، وجعلنا في أحسن تقويم، وأبدع في خلقتنا إلا خالق الأشياء كلها – سبحانه وبحمده –.؟!

﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [لقمان: ١١].

فيا عجبا! كيف يعصى الإله؟!	أم كيــف يجحده الجاحد؟!
ولله فـــي كـــلّ تحريكة	عليـــنا وتســـكينة شاهد
وفـــي كلّ شـــيء لـــه آية	تـــدل علـــى أنّـــه واحد





ويشرح صدرك للطاعة...

زار أحد الصالحين أخًا له في الله، وبات عنده تلك الليلة، وكان لصاحب البيت أخ صالح، ظلَّ ليله يُصلِّي، ويناجي ربه، ويتجافى بجنبه عن مضجعه، والضيف يتأمل في حاله، ويعجب من تبتُّله وخشوعه وخضوعه...

فلما أصبح الصباح، قال الضيف لصاحبه: عجبت من حالك وحال أخيك ليلة البارحة!

قال: وما ذاك؟

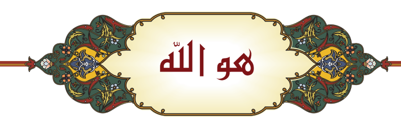
قال: أنت نائم، وهو قائم.

فقال: أما علمت -يا أخي- أنه؛ **موفقٌ ومخذول!**

هذا هو اختصار ما يمكن أن تقوله في كل ما تراه عينك من إقبال الناس على طاعة الله -تعالى- أو إدبارهم عنها..

فهذا موفق من الله -تعالى- للإيمان الصادق والعمل الصالح، قد شرح الله له صدره، ويسر له أمره، وقذف الإيمان في قلبه، ووفقه وأعانه، وسدَّده وأرشده، وأخذ بيده لمراضيه..

وذاك مخذول مرذول، كبَّلته ذنوبه، وقيَّدته معاصيه، وقعدت به خطاياه، وأسلمه الله لنفسه المقصِّرة، وشيطانه المريد، ودنياه الدنيئة، فباء بالخسران، والنكران، والحرمان!



﴿..وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾ [الحجرات: ٧].

فالله يهدي من يشاء بفضله..

ويضل من يشاء بعدله..

وما ربُّك بظلاَّم للعبيد...

﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]

فالذي هدى إبراهيم عليه السلام أضلَّ أباه..

والذي نجَّى نوحًا عليه السلام أهلك ولده..

والذي أبعد فرعون اللعين اصطفى واجتبى زوجته..

والذي أنقذ لوطًا عليه السلام أهلك أهله..

والذي شرح صدر حمزة والعباس رضي الله عنهما أغوى أبا لهب وأبا طالب وهم جميعًا أعمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنو رجل واحد..

والذي هدى الصحابة، فكانوا المهاجرين والأنصار أضل المنافقين والكفار..

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ [الزمر: ٢٢]؟!

فلا تحسبنَّ الطاعة بجهدك وكسبك وتدبيرك وتقديرك، وإنما هي بفضل الله عليك، وهدايته لك، وتوفيقه إيَّاك..

﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣].

ولو شاء لحرمك منها، ومنعك من فعلها، وحال بينك وبينها، وصرف قلبك عنها، وصدف بك عن طريقها، فكانت في قلبك أثقل من رَوَاسِي الجبال والحمول الثقال...

﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

لا مُبدِّل لكلماته، ولا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، ولا غالب لأمره ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

فوالله! لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

إن التوفيق للطاعة لا يُنال بالمال مهما كثر..

ولا بالذكاء مهما زاد..

ولا بالعلم مهما اتسع..

ولا بالقوة مهما كانت..

فهي محض فضل الله يمتنُّ به على من يشاء من عباده، ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [البقرة: ١٠٥].



﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

فلسانك الذاكر، وقلبك الشاكر، وفؤادك الصابر، وجبينك الساجد، ويدك المحسنة، وكفُّك المتصدقة، وجسدك الطائع، كلها بيد الله، فَلَو شاء أقامها بالحق وأقعدها عن الباطل، ولو شاء لأشغلها بالسوء، وحال بينها وبين هداها...

﴿.. وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١].





ويُؤْمِن مستقبلك...

ضـمَّ النبيَّ ﷺ الغارُ مـع صاحبه أبي بكـر رضي الله عنه صِدِّيق الأمَّة وصديـق الغـار، والكفار يحيطـون بهما من كل جانـب، قد ملئت قلوبهـم حقـدًا وحنقًـا، وعقولهم ضلالًا وحمقًا، ونفوسـهم شـرًّا ومكـرًا، والمطلـوب؛ رأس النبي ﷺ وصاحبه رضي الله عنه في داخل هذا الغار الصغير!

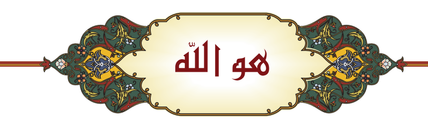
فأبصر الصديق رضي الله عنه أقدام البغاة تدور حولهم، وسـمع لهث أنفاسـهم، وقرع نعالهم، فقال في لهفة المحب المشـفق: يا رسول الله! لـو أبصر أحدهم موضـع قدمه لرآنا، فأجابه رسـول الله إجابة الصادق الواثق: «**يا أبا بكر! ما ظنك بإثنين الله ثالثهما**»؟!

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

فلم يحفل ﷺ بالخطَّة المحكمة، ولم يعتدَّ بالصديق الصادق، ولـم يلتفت للقدرة على المناورة، وإنما تعلَّـق قلبه بربه الذي بيده مقاليـد الأمور، فهـؤلاء خلقه، وعبيده، وصنع يـده، ويفعل بهم ما يشاء، ويحكم فيهم ما يريد!

فهل خذله الله وأسلمه لأعدائه؟!

لم يكن من ذلك شيء، بل كانت النجاة والسلامة والظفر!



وحسبه من الفوز والنصر وعدُ ربِّه له ﴿ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنفال: ٦٢] و﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧]، وفِي تدبيره -جلَّ جلالُه- ما يُغني عن الحيل، وفِي كرمه ما هو فوق الأمل، فلا تخاف من الأعداء - مهما كثروا - فما دمت مع الله فأنت المنصور الغالب، وهم عبيده، ونواصيهم بيده، وجباههم في قبضته، ولن يفعلوا بك إلا ما قدَّره الله عليك...

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١].

❍ ولا تخف على رزقك من الخلق، فإنه ليس لهم شأن به إلا أن يناولوك إياه، فآكل الرزق لا يرزق، فهو بيد الله الرزَّاق، وليس بأيديهم...

❍ ولا تخف على مستقبلك، فإنه بيد من صنع ماضيك، وخلق حاضرك، وهو القادر أن يؤمِّن مستقبلك...

❍ ولا تخف على أولادك من الضيعة والعيلة، فالله يرزقك وإياهم، فهل أنت خلقتهم لترزقهم وتتكفَّل بهم؟!

❍ ولا تخف على نفسك من الأسقام والآلام، فالله -تعالى- خالق الدّاء والدّواء، ولن تموت قبل يومك الموعود، وفِي غير مكانك المحدود، وساعتك المكتوبة..

❍ ولا تخف على دينك، فإنه غالب منصور، ظاهر منشور، ولو كره الكافرون..



❍ ولا تخف على وظيفتك ومركزك، فَلَو كانت لغيرك ما وصلت إليك، وما كانت لك فلن يحوزها سواك..

❍ ولا تخف على مالك، فإنه يطردك، ويسعى وراءك، ولن تصيبك المنية حتى تستوفي آخر الكسب منه..

❍ ولا تخف على موتاك، فإنهم بين يدي أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين..

فدع عنك المخاوف جانبًا، واطرح هذا القلق في مكان قصيٍّ، وألقِ هذا التوجس خلف ظهرك، وأعرض عن هذا التحزُّن إعراض الغافل، وأحسن الظنَّ بربِّك القائل: **«أنا عند ظن عبدي بي، فإن ظنَّ بي خيراً فله، وإن ظن بي شرّاً فله»**.[1]

وتوكل على الله -تعالى- حقَّ التوكُّل **«لو أَنَّكُم تَتوكَّلُون على الله حقَّ تَوكُّلِهِ لرَزقَكُم كَما يَرزقُ الطَّيرَ تغدُو خماصًا وترُوحُ بِطانًا»**.[2]

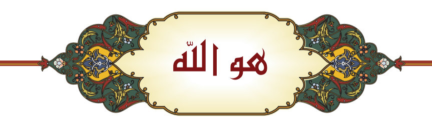
سهرت أعينٌ ونامت عيونٌ ... في أمورٍ تكون أو لا تَكُونُ
إن ربًّا كفاك ما كان بالأمس ... سيكفيك في غدٍ ما يَكُونُ

التوكل على الله -تعالى- طوق النجاة من الهم..

---

(١) (رواه أحمد، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» ٣٣٨٦).

(٢) (رواه أحمد والترمذي، وصححه الألباني في صحيح سَنَن الترمذي (٣٣٥٩)) عن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه.



والحصن الحصين من القلق..

والدرع المكين من الحزن..

والحبل المتين الموصل للسماء..

والدليل المضمون للباحث عن السعادة..

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٣].

أحسن الظن بربٍّ عوّدك حسنًا أمسِ، وسوّى أَودك

إن ربًّا كان يكفيك الذي كان بالأمسِ؛ سيكفيك غدك

❍ إنك تثق في المهندس الخبير، فتُسلمه بيتك -حلم عمرك- ليرسم خطته بيده، ويبنيه بموظفيه حسبما يراه مناسبًا..

❍ وتثق في الطبيب الحاذق، فتسلمه جسدك -أغلى ما لديك- في رضى وتسليم ليجري فيه بمبضع الجراحة دقائق العملية الخطيرة..

❍ وتثق في المعلم التربوي فتسلمه فلذة كبدك -أغلى الناس عندك- ليغرس في قلبه وعقله -ودون مراقبتك- ما يراه صوابًا من العلوم والفهوم والقيم..

❍ وتثق في الشرطي الأمين أن يحرس أهلك وبيتك ومالك وأنت تغط في سبات عميق وراحة تامة..

❍ وتثق في الطاهي الجيد ليعد لك الطعام اللذيذ -بعيدًا عنك- لتأكله دون خوف أو ارتياب..

أتثق في هؤلاء جميعًا ليصنعوا لك شيئًا من مستقبلك -بإذن الله-، ولا تثق في الله -وله المثل الأعلى- أن يدبِّر مستقبل أيامك القادمة وأحداث عمرك الآتية؟!

أتأمن هؤلاء وتخاف ربَّك الذي يدبِّر الأفلاك والأملاك والسماوات ومن فيها والأرض ومن عليها والدنيا والآخرة؟!

أتأمل في إحسان هؤلاء، وتخاف على مستقبلك القادم ويصيبك القلق عليه وربُّك الله؟!

﴿ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء: ٨١].

رضيت بما قسمَ الله لي وفوّضتُ أمري إلى خالقي

كما أحسن الله فيما مضى كذلك يُحسن فيما بَقِي

لا تنهزم للشيطان الذي يُخوِّفك الضيعة والفاقة والهزيمة والحرمان، فغايته: ﴿ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [المجادلة: ١٠].

فأي الوعدين أوثق في نفسك، وأصدق في سويداء قلبك؛ أوعد الرحمن بالخير والفضل، أم وعد الشيطان بالشر والضر؟!

﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

فمستقبلك بين يدي ربِّك الموصوف بكل كمال، والمنزه عن كلِّ عيب، والمقدَّس عن كل نقص، العليم الخبير؛ الذي لا يُعجزه شيء من أحلامك، ولا يخفى عليه شيء من حالك، في ظاهرك وباطنك، وسرِّك وعلانيتك، ويعلم ما ينفعك في العاجل والآجل، والدنيا والآخرة ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٢٣].

فخبىء في مستقبل أيامك أملًا عظيمًا وحلمًا كبيرًا، وانتظر لحظة ميلاده، فالأيام حُبلى بكرم الله وجوده، والمستقبل بفضل الله كالغيمة المطيرة مليئة بالخير الكثير، والقادم في حياتك -بإذن الله- أفضل مما ذهب منها، وما أضيق العيش لولا فسحة الأمل!

وما صبابة مشتاقٍ على أملٍ   من اللقاءِ كمشتاقٍ بلا أمل

فإن مسَّك طائف من الحزن، ومرَّت بك غاشية من كآبة، وعضَّك الألم بنابه، ونهشك الوجع بمخلبه، فقل: غدًا -بحول الله وقوته- يتبدَّد الحزن، وتغيب اللوعة، ويتلاشى الألم، ويلد الأمل أفراحًا وانشراحًا..

وقد يؤخر الله عنك الحلم الجميل ليكون أجمل، ويمنع الرغبة الجامحة لأن المقدَّر لك في الأزل خير من كلِّ أمل، ويصرف عنك المطلوب لأن المكتوب أروع من كلِّ خيال، وأمتع من كل توقّع، ورُبَّ قَدَر يُساقُ إليك خيرٌ لك من ألف حلم!



وربَّ واقع تحياه أفضل من قادم مجهول، وحياة متوقعة، ومستقبل مُتوهَّم!

وكيف يسرق اليأس من قلبك الأمل، وأنت المؤمن بأن الله على كلِّ شيء قدير؟

وكيف تهزمك الحالة الراهنة، وأنت تستعلي بإيمانك فوق هامة القنوط الزائفة؟

وكيف تبكي من لحظتك العابرة، وأنت ترجو مستقبلًا جميلًا، وغدًا رائعًا، وحياة ماتعة؟!

فالحياة قد تتعثر، ولكنها لا تتوقف..

والنجاح قد يتأخر ولكنه لا يستحيل..

والأمل قد يضعف، ولكنه لا يموت.. والفرص قد تضيع، ولكنها لا تنتهي..

فحدِّث نفسك بمستقبل مشرق، وغدٍ جميل، وقادم أحلى، ولسوف يقع ما رجوت، ويحصل ما أمَّلت، ويحدث ما تمنيت -بفضل الله وكرمه- واملأ قلبك بخوف الله، ورجائه، وحبِّه والطمع في عطائه، مع كامل الثقة به، والاعتماد عليه، والأمل فيه، فليس في الوجود أحدٌ غير الله يملك لك حولًا، ولا طولًا، ولا موتًا، ولا حياة، ولا نشورًا، فلا تمت قبل الموت، وإنما لك الساعة التي أنت فيها!

ويشد عضدك...

المرء قليل بنفسه، كثير بإخوانه، قويّ بأعوانه..

يعتريه الضعف، ويغلبه العجز، ويسيطر عليه الخور..

وقد يجتمع عليه الخصوم الأشداء، والأعداء الغلاظ، والحُسَّاد البغضاء، فيحتاج إلى معين يُعينه، وصديق يُواسيه، وحبيب يُسلِّيه، وصاحب يقف معه ويأخذ بيده..

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة   يواسيك أو يسليك أو يتوجع

فمن يسوق له النصير إذا عزَّ الظهير؟!

ومن يُذهِب ضعفه بالأقوياء، ويشد من أزره بالأوفياء، ويعينه بالأنقياء، الأتقياء، الأصفياء إلا ربُّ الأرض السماء؟!

❍ فمن أعاد موسى عليه السلام الطفل الرضيع إلى أُمِّه المكلومة فيه والمفجوعة عليه بعد أن أصبح فؤادها فارغًا إلا من وعدها وعدًا حسنًا ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧]؟!

❍ ومن قوّى ضعفه عليه السلام بأخيه هارون عليه السلام وجعله ردءًا له يصدقه وينصره إلا من قال له: ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ [القصص: ٣٥]؟



○ ومن أنقذه بالرجل الصالح المستخفي بإيمانه ليأتي مسرعًا من أطراف المدينة، فيهمس في أذن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بسبب نجاته من عداته ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [القصص: ٢٠]؟!

○ ومن ساق خطى أخته الحنونة لترقب تابوته الصغير وهو يجول به في البحر الكبير، ليقذف به في بيت فرعون الملعون، ليعيده لحضن أمِّه محفوظًا من عدوه إلا الله الحفيظ ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص: ١١]؟!

○ ومن سكّن روعة نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن رأى جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَامُ أول مرَّة إلا الله الذي ساق له خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الزوجة الوفية التي هتفت بلسانها الصادق وقلبها المشفق؛ «**كلا! والله لا يخزيك الله أبدًا**»؟!

○ ومن سخَّر لأيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ زوجته الوفيه التي صبرت على بلائه وعنائه؟!

○ ومن ربط على قلب هاجر عَلَيْهَا السَّلَامُ بالوادي الخالي بعد امتثال زوجها الغالي لأمر الله بتركها مع وليدها فيه؟!

○ ومن اصطفى إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ ليكون عونًا لأبيه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في بناء بيت الله العتيق ليكون للناس مثابة وأمنًا؟! ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧].



❍ ومـن أيَّـد نبينـا محمـدًا ﷺ بالأصحـاب الصادقيـن من الأنصار والمهاجرين إلا من اختارهم بعلمه لمصاحبة رسوله؟!

﴿.. فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

❍ وهكـذا مع كل لحظـة ضعف تعتريـك أو عجز تصيبك، يأتي إليك من الفتوح الربانية والفيوضات الإلهية ما يدهشك..

ويسـوق الله لك مـن يعينك علـى قضاء حاجاتـك، وتجاوز أزماتـك، وحلِّ مشـكلاتك في صـورة صاحب مخلـص، أو زميل قديم، أو جار محب، أو عائلة فاضلة، أو عشيرة متكاتفة، أو غيرها من صور التيسير وحسن التقدير من ربنا العزيز القدير...

فقدِّم لنفسـك الخير ببذل المعروف للغير، حتى تلقاه أمامك ينتظرك ليأخذ بيدك -في حنوٍّ وسموّ- إذا كبت بك الأقدام وتقلَّبت بك الأيام..

وازرع في قلـوب الخلـق بـذور إحسـانك، لتجنـي غـدًا مـن ثمارها، وإن فقدت يومًا مكان غرسها، فسوف يخبرك نزول المطر أين زرعتها؟

ازرع جميلًا ولو في غير موضعه ... فـلا يضيع جميـلٌ أينما زرعا

إن الجميلَ وإن طالَ الزمانُ به ... فليس يحصُدُه إلا الذي زرعا

ويوسع لك في رزقك...

جاهُ الله -تبارك وتعالى- أعظمُ الجاه..

ووجه الله أكرم الوجوه..

وعطيَّة الله خير العطايا...

﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ١٣١].

فما أجمل عطاياه، وما أجلّ هباته!

فهي بلا منٍّ ولا أذًى، ولا مطلٍ ولا بخلٍ، ولا قهرٍ ولا ذُلٍّ..

أحسنُ من كلِّ حسن في كل وقتٍ وزمن

صنيعةٌ مربوبةٌ خاليةٌ من المنن

والرزق بيده وحده، وليس بيد أحدٍ سواه، فلو كان رزقك على الناس لربما مِتَّ جوعًا، وهلكت مسغبة، فربما ينساك من رزقك عليه ويشتغل بنفسه أو بأحبابه عنك، فتهلك، ولكن رزقك على مولاك الذي لا ينساك!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر: ٣].

ولو كان الرزق بيد الخلق لحرم بعضهم بعضًا منه عند أول مخاصمة، ومع كل خلاف، وفِي أيِّ صراع...



﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠].

ولذا فالله –تبارك وتعالى– لم يقطع رزقه عن أعدائه المكذبين لرسله والمحاربين لأوليائه، لأنه ربُّ الجميع؛ من آمن به، ومن كفر، فهو يرزقهم وإن كفروا به، ويعطيهم وإن جحوده، ويكرمهم وإن خالفوا أمره وعصوا رسله..

سبحان من يعفو ونهفو دائمًا ولم يزل مهما هفا العبد عفا

يعطي الذي يخطىء ولا يمنعه جلاله عن العطا لذي الخطا

فخير الله إلى عباده نازل، وشرُّهم إليه صاعد، يتحبَّب إليهم بالنعم وهو الغني عنهم، ويتبغَّضون إليه بالمعاصي وهم المحتاجون له والمضطرون إليه...

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

فلا تخف على رزقك، فإن الله يتودد بنعمته إلى من يؤذيه، فكيف توددُّه لمن يُؤذى فيه؟!

وهذا فضله على من عصاه، فكيف فضله على من أطاعه؟!

ولم يقطعه عمن قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، أفيقطعه عنك وأنت تقول: (سبحان ربي الأعلى)؟!

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].



ورزق الله -تبارك وتعالى- لعباده كالغيث الهاطل والمطر النازل؛ يتساقط على قصور الأغنياء وأكواخ الفقراء، وفوق حدائق الأثرياء وحقول الضعفاء، وكل واحد منهم يرزقه الله بما يناسبه، وما يصلح لحاله ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ [سبأ: ٣٩].

وليطمئن قلبك، فرزقك لن يأخذه أحدٌ غيرك، وانشغل بعملك، فلن يقوم به أحدٌ سواك، واستعد للموت فإنك قادم إليه، وأعد للسؤال جوابًا، وللجواب صوابًا، فأنت لا محالة واقف بين يدي من تكفَّل لك برزقك، وسوف يحاسبك على عملك...

﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٧، ٥٨].

فكن مطمئن القلب، مرتاح الضمير، فلن تموت -يوم تموت- وبقي لك في الحياة شربة ماء، أو لقمة غذاء، أو نسمة هواء...

«إن الروح الأمين نفث في روعي؛ أنه ليس من نفس تموت حتى تستوفي رزقها» وفي رواية: **«لا تستبطئوا الرزق، فإنه لم يكن عبد يموت حتى يبلغه آخر رزق هو له، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنَّكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصي الله، فإنه لا يدرك ما عند الله إلا بطاعته، فخذوا ما حلَّ، ودعوا ما حرُم»**[١]

---

(١) (رواه البيهقي والحاكم وابن حبان، انظر صحيح الجامع: ٢٠٨٥ ، والصحيحة: ٢٨٦٦ وصحيح الترغيب والترهيب: ١٧٠٢) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.



ولو اجتمع من بأقطار الدنيا أن يمنعوك مما قدَّره الله لك، فلن يستطيعوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا..

فمتى تدرك أن العبيد لا يملكون لك نفعًا ولا ضرًّا، ولا يبذلون لك خيرًا ولا شرًّا إلا بتقدير العزيز الحميد، فالمخلوق لا يخلق، والمرزوق لا يرزق!

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

فما كُتب لغيرك فلن يأتي إليك..

وما كان لك فلن يذهب لغيرك..

وقوَّتُك لن تُعجِّل بقوتِك..

وحرصك لن يضمنه لك..

وضعفك لن يحرمك منه..

وعجزك لن يحول بينك وبينه...

فالذي أخرج يونس عليه السلام من بطن الحوت لن يعجزه أن يخرج رزقك من باطن الأرض، والذي يخرج الخبء في السموات والأرض لن يعجزه أن يخرج رزقك من صُمِّ الصخر أو عمق البحر أو جيوب البشر..

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

«جاء سائل إلى النبي ﷺ، فإذا تمرة عائرة – وهي الساقطة على وجه الأرض – فأعطاه إياها وقال: خذها، لو لم تأتها؛ لأتتك»(١)

«إن الرزق ليطلب العبد أكثر مما يطلبه أجله»(٢).

و**«لو أن ابن آدم هرب من رزقه كما يهرب من الموت، لأدركه رزقه كما يدركه الموت»**(٣)

فلتبذل السبب المشروع مع اعتماد القلب على من بيده خلقك ورزقك وكل أمرك!

فلا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع..

ولا رافع لما خفض، ولا خافض لما رفع..

ولا قاطع لما وصل، ولا واصل لما قطع..

ولا قابض لما بسط، ولا باسط لما قبض..

ولا مباعد لما قرَّب، ولا مقرِّب لما باعد..

ولا مذل لمن أعز، ولا معز لمن أذل..

ولا مضل لمن هدى، ولا هادي لمن أضل..

وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

---

(١) (رواه ابن حبان، وصححه الألباني في ظلال الجنة ح ٢٦٥ وصحيح الترغيب والترهيب: ١٧٠٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما).

(٢) (رواه البزار والطبراني في «الكبير» انظر صحيح الجامع: ١٦٣٠ وصحيح الترغيب والترهيب:١٧٠٣) عن أبي الدرداء رضي الله عنه).

(٣) (رواه أبو نعيم في «الحلية» وابن عساكر انظر صحيح الجامع: ٥٢٤٠، الصحيحة: ٩٥٢) عن جابر رضي الله عنه).

ويكتب لعملك الدوام...

العمر وعاء العمل..

والوقت مدّة البقاء قبل الفناء..

ومهما طالت أعمارنا، فإنها إلى نهاية..

ومهما امتدَّت حياتنا، فهي إلى زوال..

ولن نعيش في الحياة الدنيا إلا مرَّة واحدة، فإذا ذهبت لم ترجع، وإذا انقضت أيامها ومضت أعوامها فلن نعود بعدها للوجود، لأن بداية رحلة الخلود تبدأ بنهاية الحياة الدنيا...

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦١ – ٦٢].

والأريب اللبيب؛ من يملأ كل ساعة بطاعة، وكل لحظة في قربى تُقرِّبُه إلى الله زلفى، وكل ذلك مرهون بتوفيق الله وهدايته، ومنَّته وإحسانه...

ويتضاعف الفضل من ربِّ الفضل والبذل؛ أن يشرح صدر عبده المؤمن لعمل الصالحات الدائمة، ويهديه لبذل الصدقات الجارية التي لا تموت بموته، ولا ينتهي أجرها بنهاية حياته...

وكم لله في هذا من ألطاف خفيَّة!

«إذا مـات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جاريةٍ، أو علم ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له»[(١)].

و«إن ممـا يلحق المؤمن من عمله وحسـناته بعد موته؛ علمـًا علمه ونشره، وولداً صالحـًا تركه، ومصحفـًا ورثه، أو مسجداً بناه، أو بيتـًا لابن السـبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقةً أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته»[(٢)].

و«أربعـة تجري عليهم أجورهم بعد الموت: من مات مرابطـًا في سبيل الله، ومن علّم علمـًا أجرى له عمله ما عمل به، ومن تصدق بصدقة فأجرها يجري له ما وجدت، ورجل ترك ولداً صالحـًا فهو يدعو له»[(٣)].

و«سـبع يجري للعبد أجرهن وهو في قبـره بعد موته: من عَلّم علمـًا، أو أجرى نهراً، أو حفر بئراً، أو غرس نخلاً، أو بنى مسجداً، أو ورّث مصحفـًا، أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته»[(٤)].

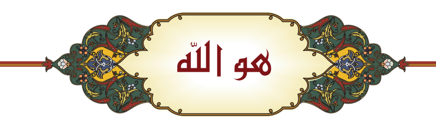
فـإذا حفـرت بئـرًا أو بنيـت مسـجدًا أو ورَّثـت مصحفًـا أو طبعت كتابًا أو فعلت صالحًا يسـتمر ثوابه ويتصل أجره، فاعلم أن الله -تبـارك وتعالى- يريد بـك خيرًا كثيرًا، ويهيىء لك الأسـباب الموجبة ليستمر نهر الحسنات جاريًا لا يقف، ومتصلًا لا ينقطع...

(١) (صحيح مسلم (١٦٣١)) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) (رواه ابن ماجه وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم ١٩٨) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) (رواه أحمد والطبراني،انظر: صحيح الجامع حديث رقم ٨٩٠). وعن أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) (رواه البـزار والبيهقـي وحسـنه الألبـاني في صحيح الجامـع برقم:٣٥٩٦) وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.



فهل بعد هذا الفضل من فضل؟!

لقد مات أناس من مئات السنين، وطوت الأرض أجسادهم لكن دواوين حسناتهم لم تطو..

فما زال ذكرهم عابقًا، ومجدهم رائقًا، وأجرهم باقيًا، وثوابهم دائمًا..

وتلك من منن الله عليهم وفضله لديهم...

فمن أعان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على وقف أرضه في خَيْبَر؟

ومن شرح صدر عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لكتابة المصحف الشريف؟

ومن هدى النووي لرياض الصالحين، وابن القيم للداء والدواء وروضة المحبين؟!

ومن هدى خادم الحرمين لتوسعتهما، وإنشاء مطبعة المدينة النبوية للمصحف الشريف، وبث إذاعة القرآن الكريم؟!

وعلى ذلك فقس كل عمل صالح كتب الله له القبول، ولأجره الدوام، ولنفعه الاستمرار..

فلا ترحل عن الدنيا دون أن يكون لك أثر فيها، وبصمة في قلوب أهلها، وألح على الله أن يستعملك في أحبِّ الأشياء إليه وأكرمها عليه، وأجلِّ الطاعات عنده، فالله ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ١٠٥] ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص: ٦٨]. و﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ.. ﴾ [النمل: ٥٩].

ويسعد قلبك بلذة الإيمان...

ليست السعادة الحقيقة في طعام تأكله، أو منزل تسكنه، أو عربة تركبها، أو ثياب تلبسها، أو نعيم زائل منقطع تتلذذ به..

فكل هذا يُشاركك فيه الكلّ، وفيهم من تذوب حشاشته ألمًا، وتذوي مهجته ندمًا، وينعصر فؤاده حزنًا..

فمُتع الجسد لا تُغني عن متعة الروح..

ولذائذ المطاعم والمشارب والمراكب لا تسدُّ فاقة القلب..

ومباهج الحياة لا تكفي عن مباهج الفؤاد...

فللجسد شأن، وللروح شأن آخر..

يا خادم الجسم كم تسعى لراحته ... أتعبت نفسك فيما فيه خسران

أقبل على الروح فاستكمل فضائلها ... فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

إن لذة الحياة، وأنس العيش، ونعيم العمر لا تكون إلا في الحياة مع الله، والعيش في كنفه، والتعامل معه، والأنس به، والرضا بقضائه وقدره، وتلك -لو علمت- جنَّة الدنيا المعجَّلة!

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧].



«لا يجد عبد حلاوة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»(١).

إن الله يمتنُّ بهذا النعيم على من يشاء من عباده، ويختص به من يشاء من خلقه، ويجتبي إليه من يشاء من عبيده.. فيا لها من مِنّة!

﴿..بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

ولن تجد لذة الحياة في المأكول والمشروب والمركوب والملبوس، وإنما ستجدها في الإيمان إذا خالطت بشاشته قلبك، وفِي الطاعة التي تجد لحلاوتها أنسًا في نفسك، وفِي المعاملة الصادقة مع الله الجالبة للسعادة، والموجبة للطمأنينة التي تسري في كيانك سريان الماء في العود، وتجري في جوانحك جريان الدماء في العروق..

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

❍ وقد وجدها ذلك الأفريقي الفقير تحت شجرة السِّدر العملاقة، وفِي يده لوح خشبي خُطَّت فيه بعض آي القرآن الكريم بالفحمة السوداء..

❍ ووجدها ذلك الصياد على قاربه المتمايل فوق ظهر البحر، والموج يحيط به من كل جانب، ليترك سنارة صيده جانبًا، فيقوم ليتوضأ بماء البحر فيركع ويسجد شاكرًا لربه على رزقه الذي ساقه إليه، وفضله الذي أكرمه به...

---

(١) (رواه أحمد في المسند، انظر: صحيح الجامع: ٢١٥٠، الصحيحة: ٢٤٧١، ٣٠١٩) عن أبي الدرداء رضي الله عنه.



○ ووجدها ذلك الطبيب المؤمن الذي خلع من يده قفازات العمليات الجراحية وقد رأى في أبدان الخلق ما زاد في إيمانه بخالق تلك الأجسام، ثم افترش سجادة صلاته، وقد أنهكه التعب وأرهقه الجهد، وهو يردد: الله أكبر!

○ ووجدها ذلك الفضائي المسلم وهو يجوب طبقات السماء داخل مركبته الفضائية، وقد رأى عجائب صنع الله في ملكوته الأعلى، فقام يلهج بالتسبيح والتحميد، وعينه تفيض بالدموع وقلبه بالخشوع...

○ ووجدها ذلك المزارع الذي يسعى خلف محراثة، وهو ينثر الحَبَّ في انتشاء وابتهاج وحُبٍّ، وهو يردد أراجيزه المحفزة، ودعواته الطامعة في فضل الله وكرمه وعطائه...

○ ووجدها ذاك الغني الثري، وهو يجوس الديار يبحث بين البيوت القديمة والمساكن العتيقة عن كبد حرَّى ينعشها، وجائع يطعمه، وعارٍ يكسوه، ومكروب يغيث روحه المعذَّبة....

○ ووجدها من أفاض الله عليه من رحمته، فهداه للإيمان الصادق والعمل الصالح..

هذه الحلاوة الرائعة والراحة الماتعة لو اجتمع المحبون والمبغضون على أن يهبوك منها أو يمنعوك عنها لما استطاعوا قليلًا أو كثيرًا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا...

إنها عطايا الرحمن لمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلًا!



ويهدي لك...

الهدايـة للحـق والحمايـة من الباطـل هي أغلـى آمالك لمن تحب، وأعلى درجات فرحك بمن تهوى..

فكيف تهنأ بطعام أو منام، وقرة عينك يتخبَّط في دياجير الظلام ودروب الضلال؟!

تلك لوعة ما بعدها لوعة!

فالهداية لا تأتي بالحيلة فتمكر عليها بكل وسـيلة، ولا بالمال فتبذل للحصـول عليها القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ولا بالجـاه فترخص للوصـول إليها أعلـى الرتب، ولا بالقـوة فتفري من أجلها الجسـد ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]؟!

وليست سلعة فتبتاعها من السوق..

ولا دواء فتأخذه من المشفى..

ولا بأيدي الناس -كل الناس- فتفاوضهم وتعاوضهم عليها..

ولا بيـد ملك مقـرَّب، ولا نبيٍّ مرسـل، ولا ولـيٍّ صالح، بل هي خالصـة لله رب العالميـن، الـذي ﴿يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤] فهو -وحده- يهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم ومنهاجه القويم، ويُضل عنها من شاء، فيرديهم بضلالهم في سواء الجحيم...



﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

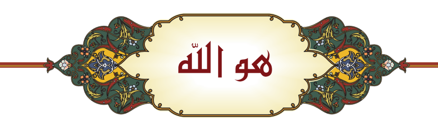
يصطفي من يشاء بفضله، فيخلق في قلوبهم الإيمان وفي سلوكهم الهدايه، فيهديهم إليها ويعينهم عليها، ويوفقهم لتحصيلها والثبات عليها، ويشرح صدورهم، ويفتح مغاليق قلوبهم، ويهديهم سواء السبيل، أو يتنكَّب بهم صراطه، وينكص بهم عن منهجه، ويجعل على قلوبهم غشاوة، ويسلك بهم سبل الغواية والضلال، وما ذلك إلا بعدله، وله فيه الحكمة البالغة والحجة الغالبة، وما ربُّك بِظَلاَّم للعبيد!

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

فإذا علمت أن قلوب العباد في يد الرحمن، وبين أصبعين مِن أصابعه يُقلِّبها كيفما يشاء، ويفعل بها ما يريد، فليس لك إلا أن تطرق بابه، وتلوذ به، وتتضرع إليه؛ أن يهدي ولدك العاق، وأخاك الضال، وصديقك المنحرف، وزوجتك العاصية، وجارك المؤذي، وقريبك المعتدي، وأباك القاسي، ومن آذاك ضلاله، وأوجعك انحرافه، وأحزنتك معاصيه...

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

فقلوبهم جميعا بيد من خلقهم وسوَّاهم، ولا يكون فيها إلا ما قدَّره الله لها من خير أو عليها من شر..



«**ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه...**»[(١)].

وكان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «**اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**» فقال له أصحابه وأهله: يا رسول الله، أتخاف علينا وقد آمنا بك، وصدقناك بما جئت به؟ قال: «**نعم، إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد، يقلبها كيف يشاء**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**اللهم مُصرِّفَ القلوبِ، صَرِّف قُلُوبَنا على طاعتك**»[(٢)].

وعن شهر بن حوشب، قال: قلت لأم سلمة رضي الله عنها: يا أم المؤمنين! ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟، قالت: كان أكثر دعائه: «**يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك**»، فقلت: يا رسول الله! ما أكثر دعاءك: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»! قال: «**يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ**»، ثم تلا معاذ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران: ٨].[(٣)]

---

(١) (رواه ابن ماجه وأحمد وابن حبان، انظر: صحيح الجامع: ٥٧٤٧، صحيح موارد الظمآن: ٢٠٥٠) عن النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٢) (صحيح مسلم (٤٩٢٧) عن عبد الله بن عمرو بن العاص) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) (رواه الترمذي، انظر صحيح الجامع: ٤٨٠١، الصحيحة: ٢٠٩١).



فليس لك إلا أن تطرق باب الله بالدعاء والرجاء، فإن أذن لك بالدخول؛ فزت، وحزت الخير كلَّه..

وإن طردك، وحرمك، فليس لك إلا العكوف عليه، والإلحاح في طلبه، والانكسار له، والافتقار لهدايته لك ولحبيبك الغالي..

ولا تيأس من روح الله، ولا تقنط من فضله، وقد أراك عجائب هدايته في خلقه...

فمن هدى النملة أن تشق البذرة في جحرها حتى لا تنبت؟

ومن أوحى للطفل الرضيع أن يلتقم ثدي أمه ليمتص حليبها؟ من دلّه على موضعه؟ ومن أجراه في مجراه وأطعمه به وسقاه؟

ومن علَّم المجنون أن الظل خير لجسده من الشمس عندما يشعر بحرارتها ولا عقل له؟

ومن سخَّر النحل أن ينتج العسل؟

من علم الزهر أن يفوح بالاريج؟

من علم النخل أن ينتج التمر؟

ومن علم الفراشة أن الرحيق في جوف الزهر؟

ومن علم الشجر أن يبدو بالثمر؟

ومن هدى الطير في جو السماء أن يتجاور مع سربه المنتشر دون أن يصطدم بأحدهم في منظر رائع ماتع يأخذ بالسمع والبصر؟



ومن هـدى العصفور أن يحضـن بيضه حتى يفقـس، فيكون عصفورًا سويًّا؟

ومـن هـدى الكواكـب أن تجـري في أفلاكهـا، والنجـوم في أبراجها، والمجرَّات في مجالاتها؟

إنـه ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠] ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ٢، ٣].

فلـن يعجزه -وقد فعل كل هذا وأكثر، وكل هداية في الكون- أن يهـدي لك من تحـب لما تحب مـن الإيمان الصـادق والعمل الصالح والتوفيق للحسنى وزيادة...

إن ذلك على الله هيِّن، وهو عليه قادر، ويبقى الأمل فيه وحده كشمسٍ لا تغيب، وقمرٍ لا يأفل، ونورٍ لا ينطفىء...





ويزين لك الكون...

خلق الله -تبارك وتعالى- الدنيا بما فيها، وسخَّر ما عليها لبني البشر، ليعمروها بالخير، وزينها للناظرين بما حوت من مباهج وفتن وصور..

وجعل فيها ما يُطرب الأذن، ويشرح الصدر، ويسعد القلب، ويبهج النظر، ويحرِّك الفكر...

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧].

❍ فمن أنبت الشجر، وأخرج الثمر، وفتَّق الزهر؟

ومن أخرجها من قلب تراب أسود، فاحم، موحل، بألوان زاهية وشذًا عطر؟

❍ ومن أحاط الجذع باللحاء، وحفظ اللُّب بالقشر؟!

❍ ومن شقَّ النوى، وفلق الحبَّة، وبرأ النّسمة، وأجرى الهواء، وأنزل المطر؟

❍ ومن خلق الشجر، والبشر، والبحر، والحجر، والمدر؟

❍ ومن ركَّم السحاب، وكوَّم الرمال، وركَّب الجبال، وأجرى النهر؟

❍ ومن خلق الناس، والأنفاس، والأجناس، وأبدع الصور؟

من ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ وجعل الحياة عبرة لمن اعتبر؟

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

كل شيء يسبِّح بحمده، ويمجِّده، ويوحِّده، ويشهد بعظمته، وينطق بكمال قدرته، وعظيم قوته...

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

- فتغريد الطيور، وزقزقة العصافير، وهديل الحمام، وشدو البلابل، تقول لك: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١١]!

- والنهر الجاري، والنبع الفوار، والمطر الهاطل، والثلج الذائب، والبرد المتساقط، والشلال المتدفق، والبحر المالح، تقول لك: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾!

- والثمرة اليانعة، والزهرة المتفتحة، والفاكهة اللذيذة، والغصن المتمايل، والفرع الرطيب، والشجرة الوارفة، والظل الممدود، تقول لك: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾!

- والجبل الأشم، والسهل الممتد، والكثيب المرتفع، والوادي السحيق، والبحر العميق، والصحراء القاحلة، تقول لك: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾!



❍ والنجم الساري، والشهاب اللامع، والنجم الثاقب، والكوكب المضيء، والقمر المستدير، والمجرة العظيمة، والكون الفسيح، والسماء الواسعة، والأفلاك الشاسعة، والأبراج المتلاحقة، تقول لك: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾!

❍ والوحش الكاسر، والحيوان الأليف، والسبع الضاري، والحوت العظيم، والطير الجميل، والدودة الزاحفة، والحشرة الصغيرة، تقول لك: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾!

❍ والليل الحالك، والفجر الصادق، والقمر الغاسق، والسَّحر السَّاكن، والأصيل الجميل، تقول لك: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾!

❍ وكل ما يدب على الأرض، وما يطير في جو السماء، وما يسبح في عباب البحار، وما هو ظاهر ومستتر، كلها تقول لك: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان: ١١]؟!

فالكون بمن فيه وعليه: يُوحِّدُ الله، ويسبِّح مولاه الذي خلقه وسواه، ويشهد له بالتوحيد، ويدين له بالخضوع، ويطيع أمره، وينقاد لحكمه...

فهل أنت طائع كطاعتها، ومستسلم مثلها، ومذعن كفعلها؟!

أم رفيق الفريق الخاسر؛ أغبياء الإنس والجن؟!

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

ويعلي درجاتك...

يترقَّى الانسـان في درجات الحياة الدنيا حيث جرت به مقادير الله، فما شـاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولن يخطو خطوة نجاح أو يرتقي درجة في سلَّم الحياة إلا بما يوافق قدر الله في الأزل..

«لا يؤمن عبد، حتى يؤمن بالقدر خيره وشـره حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه»(١).

ومهمـا كان تخطيطـه وترتيبـه، وبالرغم من جِـدِّه واجتهاده، وبذله وعمله، ومهما كانت شـفاعته ونشـاطه إلا أنه لن يتحرك قيد أنملة، أو يبني لبنة في كيان مستقبله إلا إذا رافقه توفيق الله وتسديده، ولازمه عون الله وهدايته...

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

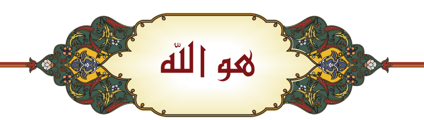
فـكل تحصيلـك العلمـي، وجوائـزك التقديريـة، وترقياتك الوظيفية، وشـهادات الشـكر، وأوسـمة التفوق، ودروع الفوز، ما كانت لتكون إلا بتوفيق الله وتقديره، وهدايته وتيسيره...

فالفضل في مبتداه ومنتهاه لله تعالى -جل في علاه-!

فعقلك دون الله حائر..

---

(١) (رواه الترمـذي، انظـر: صحيـح الجامع: ٧٥٨٥، الصحيحـة: ٢٤٣٩) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.



ولسانك دون الله كليل..

وخطوتك دون الله مشلولة..

وخطتك دون الله فاشلة..

وعلاقاتك دون الله عاجزة..

وأنت دون الله لا شيء!

وكلما زاد فضل الله عليك ودام عطاؤه لك، كلما زاد وجوب الشكر منك، ومعرفة فضله عليك، وتوفيقه لك، والاعتراف بهدايته وإعانته، والاقرار بحسن تدبيره وتقديره، والرضا بقضائه وبلائه..

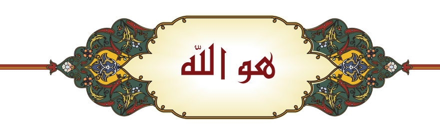
فلا تغتر بنفسك وتنسى كرم اللّه معك..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ [الانفطار: ٦]؟!

إن كرم الله يُغريك بطاعته كما أمر، وشكره كما يجب، ونسبة الفضل لصاحب الفضل، وإلا كان فوزك خسارة، ونجاحك إخفاقًا، ورقيُّك سببا في هلاكٍ محقق وسفول مؤكد...

وسل التاريخ ينبؤك بالخبر اليقين....

- فما الذي أهلك إبليس -وكان معظمًا عند الملائكة- وتسبَّب في لعنه ومسخه وطرده من الجنَّة وشقائه للأبد إلا اغتراره بجنسه وطبيعة خلقته ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [ص: ٧٦]؟!



➢ وما الذي أهلك فرعون، فجسده للغرق وروحه للحرق إلا اعتماده على سلطانه وملكه، وكثرة جنوده وعبيده ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾ [الزخرف: ٥١]؟!

➢ وما الذي أهلك قارون فخسف به وبداره وكنزه الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى قيام الساعة إلا ركونه لعقله، ونسبة المعرفة بوجوه المكاسب لنفسه دون ربِّه ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨]؟!

➢ وما الذي أهلك بلعم بن باعوراء إلا اغتراره بعلمه وفهمه، ونسيان فضل ربِّه ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا .. ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]؟!

➢ وما الذي أهلك أبا جهل -وكان سيد قومه- إلا اغتراره بجموع ناديه وشارته وجاهه ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴾ [العلق: ١٧]؟!

وما الذي أهلك أمية بن خلف -وكان من أوسع الناس مالًا ورجالًا- إلا افتخاره بكثرة ماله وولده ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾ [المدثر: ١٢ - ١٣].

وهكذا حال ومآل من غرَّته نفسه، فاعتَمَد عليها، ونسي فضل



ربِّه، وجحد معروفه وكند فضله، فعاقبة أمره إلى زوال، وعلوُّه إلى سِفال، ونجاحه إلى وبال، وسعيه في ضلال..

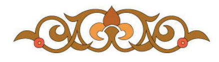
وليس الشأن في ارتفاع درجات الدنيا والرقي في منازلها، فكلُّ الدنيا لا تساوي جناح بعوضة، ولكن الشأن -كلُّ الشأن- في درجات الآخرة ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٢١].

ولن تنال منها شيئًا أو تصيب منها حظًّا إلا بفضل الله وكرمه، وعطائه وجوده..

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

فالكنز الذي لا يفنى، والربح الذي لا يخسر، والتجارة التي لن تبور؛ هي تجارة المعاملة مع الله -تعالى- والاعتماد عليه، والثقة به، فالربح فيها مضمون، والفوز بها مؤكد، والمضاعفة عليها مجزية، مغرية، محفِّزة..

فهل من مشمِّر؟!





ويشكر معروفك...

يجحد البعض من الخلق معروفك، وينكرون إحسانك، ويكفرون فضلك...

ويجرحون قلبك بإعراضهم، ويُبكون عينك بجحودهم، ويضيِّقون صدرك بصدودهم، ويقابلون الحسنة بالسيِّئة، والإحسان بالنكران، والمعروف بالأذى، والعطايا بالرزايا...

فلهم مثل السَّوءِ؛ بمن اشتدَّ عطشه، حتى كادت تتلف كبده، وتفنى روحه، فغدا يلهث بلسانه اليائس، فيلعق به الثرى اليابس، ولما وجد بئرًا، شرب من مائها العذب، وارتوى من نبعها الزلال، وعبَّ منها حتى دبَّ الريُّ في بشره وعظمه ولحمه، ثم التوى إليها، والتفت عليها، وبال فيها، وألقى بقاذوراته في بطنها، وجعل أوساخه في جوفها...

فتبًّا له ما أرذلة، وسحقًا له ما أسفله!

قد تجد الكثير من الخلق يعجز أن يقول: شكرًا، لكنه لا يعجز أن يقول هجرًا..

ويستطيع أن يبذل الإساءة -في صفاقة وجه وقلَّة حياء- لكنه لا يستطيع أن يردَّ على إحسانك بقول أنيق أو فعل رقيق، فلسانه



كليل وبيانه عليل، وهو بطيء في الردِّ سريع في الصدِّ، حريص على الجفاء متراخ في الوفاء...

وتشعر أحيانًا بأنك تزرع في أرض سبخة، وتحرث في عرض البحر، وتلقي بزهرك في جو عاصف، لا ترجع منه بشيء حسن...

هكذا بعض الخلق يفعلون!

أما الخالق العظيم.. المنَّان الكريم، فإنه يحفظ معروفك، ويشكر صنيعك، ويضاعف جزاءك، ويجزل ثوابك، ويغفر تقصيرك...

﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٣٠].

فالله -تبارك وتعالى- يرضى منك بالقليل ويجازيك عليه بالكثير..

ولا يظلمك في مثقال ذرة..

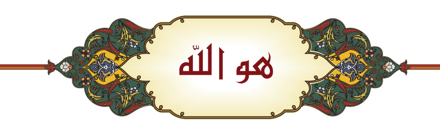
ولا يجحد من معروفك حبَّة خردلة..

ولا ينسى من إحسانك قليلًا أو كثيرًا..

ولا يُنكر من بذلك وفضلك قنطارًا أو قطميرًا...

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠].

فيشكر لك عملك الصالح، ويجازيك عليه أتمَّ الجزاء، ويعطيك عليه أكرم العطاء..



وهـو -في الحقيقـة- مـن هداك إليـه، وأعانك عليه، وشـرح صدرك له، وهيَّأ أسبابه، وصرف موانعه..

وليس ذلك وحسـب، بـل ويجازيـك عليه بالأجـر الجليل، والجزاء الجزيل، والثناء الجميل..

فـلا تدري أي النعم تشـكر، أهدايتـه، أم إعانتـه، أم قبوله، أم ثوابه، أم شكره؟!

إذا كان شكري نعمة الله نعمةً ... علي له في مثلها يجب الشـكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر

فالفضل -في كل حال- فضله، والمنَّة -على كل عمل- مِنَّتُه، فهـو الحميد الشـكور، يشـكر لك وهـو غني عنك وعـن عملك، ويضاعف جـزاءه ﴿ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ﴾ [آل عمـران: ١٣٠] و﴿ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة: ٢٤٥]..

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

تباركَ من شُكرُ الورى عنه يَقصُرُ ... لكونِ أيادي جودهِ ليس تُحصَرُ
وَشاكرها يحتاجُ شكراً لـشكرها ... كذلك شكُرُ الشكرِ يحتاج يُشكَرُ
ففي كل شكرٍ نعمةٌ بعدَ نعمـــةٍ ... بغيرِ تناءٍ دونها الشـــكر يصغرُ
فمن رامَ يقضي حقَّ واجبِ شُكرها ... تحمّل ضمن الشكرِ ماهو أكبرُ



ويشـكر لك الحسنة بحسنة أحسـن منها، فما تزال الحسنات تتداعى، وكل واحدة تقول لأختها: هلمي.. هلمي!

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فكلما فرغت من طاعة، نصبت لغيرها وأحسن منها..

ويفتح لك أبوابًا من الخير ما كانت على بالك..

ويعينك على خير ما كنت تطيقه..

ويجـري منافع الناس وأعمالهم الصالحة عن طريقك ليكون لك منها أكثر الحظ وأوفر النصيب..

﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [الشورى: ٢٣].

ومـا يزال يشـكر لـك صنيعة خيـر فعلتهـا، وخبيئـة معروف عملتها، وربما لم تعد تذكر منها شيئا، لكن الشكور -الذي لا تنفد عطاياه، ولا تنقطع آلاؤه، ولا تنتهي نعماؤه- لا ينساها!

﴿ .. إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٣٤].





ويقيل عثرتك...

تخسر في صفقتك التجارية، فيغلبك الهم..

ويتعثَّر مشروعك الدراسي، فتتألم..

وتُخفق في تحقيق طموحك الوظيفي، فتحزن..

وتفوت من بين يديك فرصة الربح، فتندم..

وتعجز عن الوصول لحلم حياتك، والحصول على أمنياتك، فتأسف..

وتنحت الأحزان قلبك نحتًا، وتفتُّ الآلام فؤادك فتًّا، وتشعر بالضيق الشديد، والحزن المضني، والوجع المؤلم..

وتشعر بأن حلمك غدا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، أو كبيت من رمال تعاقبت عليه أمواج البحار فزال، أو كعصفور تحطَّم عشّه، فبكى، وطار..

ويلهمك الله فضيلة الصبر، ويفتح عليك بنعمة الاحتساب للأجر، ويشرح صدرك لتفويض الأمر لمن بيده الخلق والأمر، وهو من كتبه وقدَّره، وتُردِّد في إخبات وتسليم: «**إنَّا لله وإنا إليه راجعون، اللهم آجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيرا منها**»...

لعلمك أن الذاهب ليس لك..

وأن الغائب ليس من نصيبك..

وأن الفائت لم يكن من حظِّك المقسوم..

وأن الذي يمشي ورأسه إلى الخلف لا يصل لغايته أبدًا..

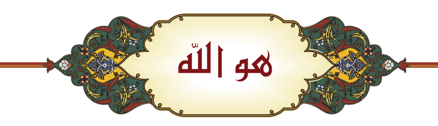
وأن الذي تمتلىء عينه بالدموع لا يكاد يبصر الطريق..

فترضى بالعوض من الله، وتطمع في الخُلف منه، فيأتيك الغوث من المغيث -جلَّ جلاله-، ويفيض عليك من حنانه وإحسانه، وتغمرك شآبيب رحمته، فتغسل أوجاعك، وتداوي جراحك، وتجبر كسر قلبك، وتجلو الهم عن نفسك، وتزيح الضيق من صدرك، وتغمر فؤادك بالرضا، وتملأ نفسك بالقناعة...

﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

وتجري مقادير الله بالفرج العاجل، والخلف السريع، والعوض الهنيء، ويسوق الله عجائب المقادير وبدائع الصنايع، برغم أنف المواجع، وتهب عليك نفحات الرحمة بعد لفحات الحرمان، وإذا بالفرج بين يديك وقد كنت تراه بعيدًا، وإذا بالرضا يغمر حياتك حتى وإن تعلَّق الحزن فوق كتفيك، واستقر الألم في سويداء قلبك، ونشب الجرح بين ضلوعك..

فإذا بالرزق يأتيك من حيث لا تحتسب..



والتوفيق يحالفك من حيث لا تدري..

والفرص تتوالى عليك كالمطر الهاطل تطلبُ ودَّك..

والنجاحات تتابع كالغيث المدرار تخطبُ وصلك..

وإذا بالتوفيق بعد الخيبة، والنجاح بعد الفشل، والسمو بعد الدون، والفوز بعد الإخفاق...

ولرُبَّ نازلةٍ يضيق بها الفتى ذراعًا وعند الله منها المخرجُ

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فُرجت وكان يظنها لا تُفرجُ

فمن يقيل العثرة، ويغيث اللهفة، ويفرج الكربة إلا غياث المستغيثين، وأمان الخائفين، وأنيس المستوحشين، وواصل المنقطعين، وجابر المنكسرين، ومجيب دعوة المضطرين؟!

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ..﴾ [الأنفال: ٩].

الله وحده من يغيث قلبك بالرضا، ونفسك بالقناعة، ويدك بالغنى، وآمالك بالتحقيق، وأحلامك بالوقوع...

انتظر قليلًا، قليلًا.. وستدهشك البشائر..

فالفجر يتنفس بعد اختناق الليل المظلم، والشجر يؤرق من جديد بعد رحيل الشتاء القارص، وصرخة المولود تعلن انتهاء أوجاع المخاض المؤلم..



○ **فيا أيها الخائف الوجل..** بعد رحيل العاصفة ينبت الزهر ويخضرُّ الشجر..

○ **أيها الظمآن الجائع..** خلف هذه المِحنة ماء عذب هنيء وطعام شهي..

○ **أيها المريض..** بعد مرارة العلاج ومبضع الجراح، حلاوة السلامة ونداوة الصحة والعافية..

○ **أيها المسجون..** عقب صلصلة الأصفاد المفزعة، جلجلة الخطوات السريعة والركض -في البريَّة- حتى التعب..

○ **أيها الفقير المعسر..** بعد انكسار الحاجة واليد القصيرة، استعلاء الغنى والأشياء الكثيرة..

○ **أيها الكئيب الحزين..** وراء هذه الدمعة اللاهبة، ابتسامة الرضى وبهجة الخاطر..

○ **أيها القلب المنكسر المتألم..** لا تنهزم، فمن رحم الألم يلد الأمل، ومن بين ركام الأوجاع تنبت فسائل الأفراح، ومن بين لهيب النار يشعّ النور ويشيع الدفء ويطيب المكان!

فكم لله من تدبير أمرٍ ... طوته عن المشاهدةِ الغيوبُ
وكم في الغيب من تيسير عسر ... ومن تفريجِ نائبةٍ تنوب
ومن كرمٍ ومن لطفٍ خفيٍّ ... ومن فرجٍ تزولُ به الكروب



فلماذا تسمح لليأس أن يمضغك بين فكَّيه، ويفركك بين كفَّيه، وأن يلقي بأحلامك في سلّة المهملات؟!

ولماذا تُلقي بنفسك في البحر قبل أن تغرق السفينة؟!

ولماذا تملأ عينك بالدموع قبل الشروع في الرحيل؟!

ولماذا تغمض عينك عن الفرص الأخرى التي سيُعوِّضك الله بها ما فات عليك، وما ضاع من بين يديك؟!

إذا اشتملت على اليأس القلوب … وضاق بما به الصدرُ الرحيب
وأوطنت المكارم واطمأنت … وأرست في أماكنها الخطوب
ولم تَر لانكشاف الضرِّ وجهًا … ولا أغنى بحيلته الأريب
أتاك على قنوط منك غوثٌ … يمنُّ به اللطيفُ المستجيب
وكل الحادثات إذا تلاهت … فموصول بها فرج قريب

أي وربي!

إن فرج الله لقريب، وإن فضل الله لآتٍ!



الخاتمة...

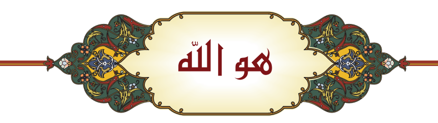
أما بعد:

فكان هذا حديث العبد، الضعيف، الفقير، المسكين، المتَّصف بصفات النقص والعجز والتقصير، عن ربِّه العظيم القدير، الكبير المتعال، المتصف بكل صفات الكمال والجلال والجمال، المنزَّه عن كل عيب، والمبرأ من كل نقص، والمقدس عن كل سوء...

أردت أن أبين لكل ذي عينين عن شيء من فضل ربِّنا -جلَّ جلاله- علينا، وإحسانه إلينا، ليزيد إيماننا به، وحبنا له، وتعلقنا بكرمه وجوده وفضله..

وإنه لجهد المقل، وبذل العاجز، وسعي الضعيف، وأملي أن أكون قد أسهمت به في تقريب رشفة رواء، ومناولة غرفة ماء من دلو السقاء للواردين الراغبين في معرفة ربِّ العالمين..

عشت معه أسعد اللحظات وأمتع الساعات، أنسًا بالله وذكره، وسعادة بالدلالة عليه، وفرحًا بسوق الناس إلى ربِّهم سوقًا جميلًا، فعسى أن أكون حاديًا وهاديًا، ودلَّالا ودليلًا، لمن شاء أن يتخذ إلى ربِّه سبيلًا...



وكنت أشعر بنشوة تهز كياني وتعصف بقلبي كما تفعل ريح الشتاء بمزون السماء كلما انتهيت -بفضل الله- من فصل في فصول «**هو الله**»...

ولطالما تساءلت مع نفسي في دهشة بالغة: إني لأجد في خاطري بهجة تسري في جوارحي، وراحة تملأ ما بين جوانحي بالكتابة عن الله تعالى، فكيف ببهجة لقياه، وسعادة رؤياه، وسماع كلامه، والنظر إلى وجهه الكريم في جنات النعيم؟!

فيا لذة الأذن بما تسمع!

ويا لذة العين بما ترى!

ويا لذة القلب بما يشعر!

وأدركت سرًّا من أسرار سعادة أهل الجنَّة وهم في نعيمها المقيم وخيرها العميم، وقد أسقط الله عنهم كل التكاليف الشرعية -فهي دار الجزاء والعطاء- إلا أنهم يُلهمون التسبيح كما يلهمون النفس، فكأنما لذَّة ذكر الله ووصفه بما يستحقه من نعوت الجلال وصفات الجمال لذة روحية قلبية لا تقل على كل متع الجنَّة الرائعة ولذائذها الفاتنة!

إن الثناء على الله -تعالى- شرف دونه كل شرف، وعزٌّ دونه كل عزٍّ، وما من شرف لأحد في العالمين من المخلوقين بأعظم مما



يكون لسيد المرسلين محمد ﷺ من المقام المحمود والوسيلة والشفاعة العظمى في يوم القيامة، فعندما يطول الموقف بالناس على العرصات، يذهبون للأنبياء يستشفعون بهم لفصل القضاء بينهم، فتكون دعواهم: نفسي.. نفسي، اللهم سلِّم.. سلِّم!

وينبرىء لها خير الأنبياء وأعظم الأولياء وأشرف الأصفياء، فيقول لهم: أنا لها! وهو بها جدير، وعليها قدير...

فيخر تحت العرش ساجدًا، شاكرًا حامدًا، ويفتح الله عليه من المحامد والثناء عليه بما لم يكن له على بال، حتى يقول له مولاه: يا محمد! ارفع رأسك، وَسل تعط، واشفع تشفَّع.....

فتأمل في هذا المقام الشريف المنيف كيف تقرَّب إلى الله بأجمل الطاعات وأجلِّها، وهي؛ الثناء عليه بما هو أهله، وتسبيحه، وتمجيده وتقديسه!

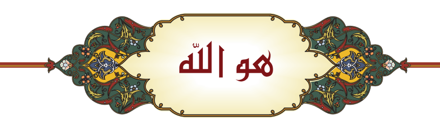
فيا أيها الناس؛

«ليسَ أَحدٌ أحبَّ إليهِ المدحُ مِن الله، مِن أجل ذلك مدَحَ نفسَهُ»(١).

ولذا ينبغي أن يكون الثناء على الله وتمجيده ومدحه هو بوابة الدخول عليه حين الدعاء والطلب منه..

---

(١) رواه البخاري (٤٦٣٤) ومسلم (٢٧٦٠) عن عبد الله بن مسعود.



فقد سمع رسول الله ﷺ رجلا يدعو في صلاته لم يمجِّد الله -تعالى- ولم يصلِّ على النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «**عَجِلَ هذا**»، ثم دعاه، فقال له أو لغيره: «**إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه - جل وعز - والثناء عليه، ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم يدعو بَعدُ بما شاء**».(١)

وحسبي أني أسرجت مصباح ضياء وأوقدت مشعل هداية في طريق السائرين ومدارج السالكين إلى رب العالمين، وبقي أن أعترف بتقصيري وأقرَّ بضعفي، فما كان لقليل البضاعة وضعيف الصناعة مثلي أن يقتحم هذه العقبة الكؤود، ويرتقي هذا المرتقى الوعر، لولا رغبتي أن يكون لي زلفى من عمل صالح أتقرب بها لولي نعمتي، وأنيسي في وحدتي، وسلواي في وحشتي، ومفزعي في كربتي، وملاذي عند عثرتي، أسترضيه بها عليَّ، وقد قصَّرت في جنبه، وأسأت جوار نعمته، وخالفت بعض أمره، لا جرأة عليه، ولا حبًّا في مخالفته، ولا استهانة بعظمته، ولكنها نفسي المقصرة، وإيماني الضعيف، وشيطاني المريد، وغفلتي الموجعة، وليس لي طمع إلا في فضله وعفوه ومغفرته، فهو ربي ومولاي، أحسن مثواي، ورفع بلواي، وغفر خطئي، وستر خطيئتي، وحفظني في كل خطواتي...

---

(١) (رواه للترمذي وأبو دَاوُدَ وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٣١٤)) عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه.

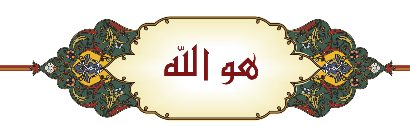


فكيف لا أكتب عنه بعض ما أعرفه، وقد غمرني بمعروفه، وشملني بصنوف إحسانه، وربَّاني بنعمه، وأكرمني بوافر فضله وجوده وإنعامه؟!

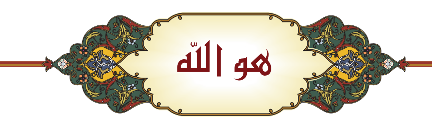
إني إذًا لمن الغافلين!

فما أوحى به جناني وخطَّه بناني وجرى به بياني هو ما تراه بين يديك، وترمقه بناظريك، فإن رأيت فيه حقًّا، وأحسست منه صدقًا، وأصبت به خيرًا، فهو من ربِّ الخير -فلا خير إلا خيره-، ولا تحرمني من دعوة صالحة بقبوله على عجره وبجره، وإن رأيت فيه خطأ أو خطيئة، فهي مني وحدي، وبسبب ذنوبي التي حالت بيني وبين توفيق ربي، فعالج الزلل، وسُدَّ الخلل، وأصلح الفاسد، وقوِّم المعوج، ولا تحرمني من دعوة صالحة بمغفرة الذنب -وهو كبير- و التجاوز عن التقصير -وهو كثير-، وإلى الله تصير الأمور، إن الله -خالقنا ومولانا- على كل شيء قدير، نعم المولى، ونعم النصير!





الفهرس


هو اللّه

